

ڪامل ڪيلاني

# جلفر في بلاد العمالقة



# جَلْفَرِ فِي بِلَادِ الْعَمَالِقَةِ



# جَلْفَرِ فِي بِلَادِ الْعَمَالِقَةِ

الرحلة الثانية

تأليف  
كامل كيلاني



رقم إيداع ٢٠١٢/١٦٩٨٨

تدمك: ٩ ٠٣٢ ٩٧٧ ٩٧٨

**مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة**

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

# المحتويات

٧	الفصل الأول
٢٧	الفصل الثاني
٣٣	الفصل الثالث
٤٥	الفصل الرابع
٥٧	الفصل الخامس
٧١	الفصل السادس
٧٩	الفصل السابع
٩٥	خاتمة الرحلة



## الفصل الأول

### (١) دواعي السفر

لَمْ يَمُرَّ عَلَى عَوْدَتِي إِلَى وَطَنِي شَهْرَانِ حَتَّى ضَجِرْتُ بِحَيَاةِ الرَّاحَةِ، وَتَاقَتْ نَفْسِي إِلَى السَّفَرِ، وَشَعَرْتُ بِشَوْقٍ شَدِيدٍ — لَا قُدْرَةَ لِي عَلَى دَفْعِهِ — إِلَى الرَّحِيلِ، وَرَغْبَةً حَارَّةً فِي السِّيَاحَةِ وَرُؤْيَاةِ الْبِلَادِ الْغَرِيبَةِ. وَقَدْ تَمَلَّكَ عَيِّي حُبُّ الْأَسْفَارِ كُلِّ نَفْسِي؛ فَاعْتَزَمْتُ أَنْ أُظْعَنَ، وَتَرَكْتُ لِزَوْجِي خَمْسَمِائَةَ جَنِيهِ، وَكَتَرَيْتُ لِسُكْنَاهَا مَنْزِلًا فِي «كَرْدَيْف»، وَأَخَذْتُ مَا بَقِيَ مِنْ ثَرَوَتِي؛ فَشَرَيْتُ بِبَعْضِهِ بِضَائِعَ أَتَّجِرُ فِيهَا، لِأَنْتَمَّرَ مَالِي وَأَزِيدَ فِي ثَرَوَتِي. وَكَانَ عَمِّي قَدْ تَرَكَ لِي — بَعْدَ وَفَاتِهِ — أَرْضًا يُقَدَّرُ رَيْعُهَا بِثَلَاثِينَ جَنِيهَاً. وَقَدْ شَجَّعَنِي ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى السَّفَرِ، فَقَدْ أَصْبَحْتُ لَا أَخْشَى — عَلَى أُسْرَتِي — أَلَمَ الْفَاقَةِ وَمَضَاضَةَ الْجُوعِ وَالْإِلْتِجَاءَ إِلَى التَّكْفُفِ وَالسُّؤَالِ.

وَكَانَ وَلَدِي يَتَعَلَّمُ اللَّاتِينِيَّةَ فِي الْمَدْرَسَةِ، وَابْنَتِي تَخِيطُ الْمَلَابِسَ وَتُطَرِّزُهَا لِتُنْفِقَ عَلَى بَنَاتِهَا الصَّغِيرَاتِ.





ولم أتردد في عزيمتي على السفر — بعد أن اطمأنت نفسي على مستقبل أسرتي — فودعت زوجي وولدي وابنتي، وقد بكوا حين دنت ساعة الفراق، ولكنني تحمّلت، واعتصمت بالصبر، وصعدت — بشجاعة — إلى السفينة «أفانتور»، وهي سفينة تجارية كبيرة تستطيع أن تحمل ثلاثمائة طن، وكان ربانها من «ليفربول»، وهي مبحرة إلى «سورات».

## (٢) هُبُوبُ العاصِفَةِ

وكأنما قَصَى اللهُ عليَّ أن تكونَ حياتي — في هذه الدنيا — حياةً مضطربةً، وأن أفضِيَ عُمرِي  
 دَائِمَ الأسفارِ، لا يَقْرَأُ لي قرارٌ، فاستبدلتُ بِحياةِ الحَفْضِ والدَّعةِ حياةَ القَلَقِ والاحتِتامِ.  
 وقد أَقْلَعَتِ السَّفِينَةُ بي في اليومِ العشرين من يونيو عام ١٧٠٢ م. وكان الهواءُ رُخَاءً  
 والجَوُّ صَافِيًا، وما زالت السفينةُ سائرةً حتى وصلتُ إلى «رَأْسِ الرَّجَاءِ الصَّالِحِ»، حيثُ  
 أَلْقَيْنَا مَراسِينًا لنستريحَ قليلًا. وكان رُبَانُنَا قد أُصِيبَ بِالْحَمَى؛ فلم نستطعْ أن نغادرَ ذلك  
 المكانَ إِلَّا في آخرِ شهرِ مارس. وثُمَّ أَقْلَعَتُ بنا السفينةُ، وما زالتُ تَمَحَّرُ بنا عِبابَ البحرِ  
 — والجَوُّ صافٍ والريحُ معتدلةٌ، والسِّيَاحَةُ موقَّعةٌ سعيدةٌ — حتى وصلنا إلى جزيرةِ  
 «مدغشقر» حيثُ سِرْنَا إلى شمالِ هذه الجزيرةِ، وكانتِ الرِّياحُ تعتدلُ في هذه الجِهاَتِ من  
 أولِ ديسمبرِ إلى أولِ مايو، ولكنَّ هُبُوبَهَا — لِسُوءِ حَظَّنَا — بَدَأَ يَشْتَدُّ في التاسعِ والعشرين  
 من أبريل، وما زالتُ تَعْنَفُ وتَثُورُ عِشْرِينَ يَوْمًا تَباعًا؛ فاندَفَعْنَا — في هذه الأثناءِ — إلى  
 شَرْقِيٍّ «جزائرِ المُلُوكِ»، في الدرْجَةِ الثالثةِ تقريبا من شمالِ خطِ الإِسْتِواءِ، ذلك ما قَدَّرَهُ  
 الرُّبَّانُ، وَكُنَّا في اليومِ الثاني من شهرِ مايو. وقد هدأتِ الرِّياحُ التَّائِرَةُ، ولكنَّ الرُّبَّانَ قد  
 أَنْذَرْنَا بِاقْتِرَابِ عاصِفَةٍ أَشَدَّ. وكان ذلك الرُّبَّانُ من أَوْسَعِ المَلَّاحِينَ خِبْرَةَ بَتَغْيِرِ الجَوِّ وتَقَلُّبِ  
 البحرِ، وقد أَكسَبَتَهُ المِرانَةُ والتَّمَرُّسُ بأحوالِ هذه البحارِ حَصَافَةً نادرةً وَالْمَعِيَّةُ لا تكادُ  
 تُحْطَى. وقد أَمَرْنَا بأن نُعَدَّ العُدَّةَ لمُكافَحةِ العاصِفَةِ الهُوجاءِ التي سَنَهَبُ علينا في الغدِ.  
 وقد تَحَقَّقَ لنا صدقُ ما قال، وهبَّتْ علينا رِيحُ الجَنُوبِ عَنيفَةً عاصِفَةً. وَكُنَّا على  
 أَتَمِّ أَهْبَةِ؛ فَطَوِينَا الشُّراعَ وأَمْسَكْنَا بِالسَّارِيَةِ، ولكنَّ العاصِفَةَ — لسُوءِ الحَظِّ — كانتِ  
 تَزْدَادُ شِدَّةً وَعُنفًا. ولم نَجِدْ لنا من حِيلَةٍ تُخَفِّفُ من أَضْرارِها إِلَّا أن نَسِيرَ حيثُ تكونُ  
 الرِّياحُ خَلْفَنَا؛ فَاتَزَنَّتِ السَّفِينَةُ قَليلًا، وجعلنا الشُّراعَ الكَبيرَ بحيثُ لا يُعَارِضُ العاصِفَةَ.  
 ولكنَّ خابَ حِسبانُنَا، وأَخْطَأَ ظَنُّنَا؛ فَقد عَنَفَتِ الرِّيحُ، وَمَزَّقَتِ الشُّراعَ تَمزِيقًا، واضْطَحَبَتِ  
 الأمْواجُ، وظَلَّتِ السَّفِينَةُ في عُرْضِ البحرِ لا يَقْرَأُ لها قرارٌ. ثم أعْقَبَتِ العاصِفَةُ رِيحَ عاتِيَةٍ؛  
 فَدَفَعْتُنَا إلى مَسافَةٍ بعيدةٍ لا أَحْسَبُها تَقَلُّ عن حَمْسِمائَةٍ ميلٍ نحوِ الشَّرْقِ، فأصْبَحْنَا في  
 مكانٍ من البحرِ مَجْهولٍ لا أَعْتَقِدُ أن سفينةً قَبَلْنَا قد وصلتْ إليه، وما أَظُنُّ أن رُبَّانًا —  
 بالغةً ما بَلَغَتْ خِبْرَتُهُ بِالبحارِ — يستطيعُ أن يَعْرِفَ مَوْقِعَ هذا المكانِ النَّائِي السَّحِيقِ.  
 ولم نَكُنْ نَشْكُو — حينئذٍ — قِلَّةَ الرِّادِ، ولم تُصَبِّ سفينَتُنَا بعد كلِّ هذه العواصِفِ بِعَطَبٍ،

ولم يَمْرُضْ أَحَدٌ مِنْ رِجَالِنَا، عَلَى مَا كَابَدُوهُ مِنَ الْعَنَاءِ وَالشَّدَّةِ. وَلَمْ يَكُنْ يُعْوِزُنَا حِينُنَا إِلَّا الْحَصُولُ عَلَى الْمَاءِ الْعَذْبِ.

### (٣) فِي أَرْضِ الْعَمَالِقَةِ

وَفِي الْيَوْمِ السَّادِسِ مِنْ يُونِيُو عَامِ ١٧٠٣ م، كَانَ أَحَدُ مَلَاَحِينَا مُعْتَلِيًا ذِرْوَةَ السَّارِيَّةِ، فَلَاَحَتْ لَهُ الْأَرْضُ مِنْ بَعِيدٍ. وَمَا أَحْبَرْنَا بِذَلِكَ، حَتَّى وَلَّيْنَا سَفِينَتَنَا شَطْرَهَا. وَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ السَّابِعَ عَشَرَ رَأَيْنَا الْيَابِسَةَ بُوْضُوحٍ، وَلَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَتَعَرَّفَ أَيْنَ نَحْنُ؟ وَهَلْ وَصَلْنَا إِلَى جَزِيرَةٍ كَبِيرَةٍ، أَمْ قَارَّةٍ مَجْهُولَةٍ؟ فَاقْتَرَبْنَا مِنْهَا، وَالْقَيْنَا مَرَايِي السَّفِينَةِ، وَأَرْسَلْنَا اثْنَيْ عَشَرَ مَلَاَحًا فِي زَوْرَقٍ صَغِيرٍ، وَمَعَهُمْ أَسْلِحَتُهُمْ؛ لِيُدَافِعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ إِذَا دَهَمَهُمْ خَطْرٌ، وَقَدْ أَوْصَاهُمُ الرُّبَّانُ بِالْبَحْثِ عَنْ مَاءٍ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ، وَأَعْطَاهُمْ أَوْانِي لِيَمْلُئُوهَا مَاءً، فَاسْتَأْذَنْتُ الرُّبَّانَ فِي مُصَاحَبَتِهِمْ، فَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي الْإِذْنِ لِي. وَلَمْ نَهْبِطْ تِلْكَ الْأَرْضَ حَتَّى سَرْنَا بِأَحِيثِينَ عَنْ نَهْرٍ أَوْ عَيْنِ مَاءٍ، فَلَمْ نَرَ فِيهَا أَثْرًا وَاحِدًا يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّهَا مَأْهُولَةٌ بِالسُّكَّانِ، فَسَارَ رِجَالُنَا بِالْقَرَبِ مِنَ الشَّاطِئِ لِيَبْحَثُوا عَنِ الْمَاءِ، وَسِرْتُ أَنَا — لِسُوءِ حَظِّي — مَنْفَرِدًا. وَقَدْ دَفَعَنِي حُبُّ الْإِسْتِطْلَاعِ إِلَى التَّوَعُّلِ فِي تِلْكَ الْجِهَةِ نَحْوَ مِيلٍ، فَوَجَدْتُهَا أَرْضًا صَخْرِيَّةً مُجْدَبَةً قَفْرَاءً. ثُمَّ أَدْرَكَنِي التَّعَبُ وَالْمَلَلُ؛ فَرَجَعْتُ مُتْبَاطِئًا فِي سَيْرِي مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُ. وَبَيْنَمَا أَنَا مُقْتَرِبٌ مِنَ الشَّاطِئِ إِذْ رَأَيْتُ رِفَاقِي يَجِدْفُونَ بِسُرْعَةٍ شَدِيدَةٍ، رَغْبَةً فِي إِنْقَازِ حَيَاتِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ، وَرَأَيْتُ عَمَلًا هَائِلًا الْجِسْمِ يَتَعَقَّبُهُمْ بِسُرْعَةٍ شَدِيدَةٍ، وَلَكِنَّ رِفَاقِي كَانُوا عَلَى بُعْدِ نِصْفِ مِيلٍ مِنْ ذَلِكَ الْعَمَلِاقِ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعِ اللَّحَاقُ بِهِمْ.



وما رأيتُ ذلك حتى أسرعُ بالفرار مُتسلِّقًا قَمَّةَ جَبَلٍ وَعَرٍ، ثم نظرتُ فرأيتُ مَرَجًا، وقد تَمَلَّكَنِي العَجَبُ مِن ارتفاعِ حَشائِشِهِ إلى عشرين قَدَمًا، فَنَدِمْتُ أَشَدَّ النَّدَمِ على مُجازِفتِي بالخُرُوجِ إلى هذه الجزيرة، والسيرِ فيها بعيدًا عن رِفاقي، وعلمتُ أن حُبَّ الاستِطلاعِ قد ساقَنِي إلى الحَتَفِ والهلاكِ، ولكنني رأيتُ النَّدَمَ لا يُفيدُ، فأسَلَمْتُ أَمْرِي إلى الله، وَمَشَيْتُ في طريقِ كَبِيرَةٍ تنتهي بِحَقْلِ مَزْرُوعِ شعيرًا، فسرتُ قليلًا دون أن تَقَعَ عَيْنِي على إنسان. وكان وقتُ الحَصَادِ قد دَنَا، ونضجتِ سنابل القمح، ووصل ارتفاعها إلى أَرْبَعِينَ قَدَمًا أو أَكثَرَ.

فسرتُ ساعة من الزمن دون أن أَصَلَ إلى نهايةِ الحقل، وكان يُحيط به سِياجٌ عالٌ يبلغ ارتفاعه أَكثَرَ من مائةٍ وعشرين قَدَمًا، وقد عَجِبْتُ لِضَخَامَةِ الأشجارِ في هذه البلاد، وطولها الذي لا يكاد يَتَصَوَّرُهُ عَقْلٌ؛ حتى لَيْسَتْحِيلُ عَلِيٍّ أن أَقْدَرَ ارتفاعَها. وبحثتُ طويلًا عن تُغْرَةٍ في ذلك السِّياجِ لأنفَذَ منها إلى الحقل. وإنِّي لذلك إذ وقع نظري على عِملاقٍ آخَرَ في الحقلِ المُجاوِرِ؛ فرأيتُهُ في مثل طولِ العِملاقِ الأولِ الذي كان يتعقَّبُ رِفاقي الهارِبين!

(٤) بَيْنَ سَنَايِلِ الْقَمَحِ

وَهُنَا عَلِمْتُ أَنَّنِي فِي بِلَادِ الْعَمَالِقَةِ؛ فَقَدْ كَانَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فِي مِثْلِ ارْتِفَاعِ الْمِئْدَنَةِ، وَكَانَتْ مَسَافَةُ خُطْوَتِهِ نَحْوَ تِسْعَةِ أَمْتَارٍ، فَتَمَلَّكَنِي الدُّعْرُ، وَكَادَ يَنْخَلَعُ قَلْبِي مِنْ شِدَّةِ الْهَلَعِ؛ فَأَسْرَعْتُ أُحَاوِلُ الْإِخْتِفَاءَ بَيْنَ سَنَايِلِ الْقَمَحِ، وَانْسَلَلْتُ مِنْ تُغْرَةٍ قَرِيبَةٍ، فَلَمَحْتُ الْعَمَلِقَ مِنْ بَعِيدٍ.

وَبَعْدَ قَلِيلٍ صَاحَ بِصَوْتِ كَالرَّعْدِ الْقَاصِفِ، يَكَادُ يُصَمُّ الْأَذَانِ، فَحَضَرَ إِلَيْهِ سَبْعَةُ رِجَالٍ — فِي مِثْلِ طَوْلِهِ وَضَخَامَتِهِ — وَفِي يَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِئْجَلٌ صَغِيرٌ فِي حَجْمِ سِتِّ مَنَاجِلٍ كَبِيرَةٍ مِنْ مَنَاجِلِنَا. وَكَانَ زَيْهُهُمْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ حَدَمٌ لِدَكَ السَّيِّدِ؛ فَقَدْ جَاءُوا مُلَبِّينَ نِدَاءَهُ، وَأَقْبَلُوا يَحْضُدُونَ سَنَايِلَ الْقَمَحِ بِمَنَاجِلِهِمْ — حَيْثُ كُنْتُ مُخْتَبِئًا — فَجَرَيْتُ مَبْتَعِدًا عَنْ مَكَانِهِمْ.

وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْيَسِيرِ عَلَيَّ أَنْ أَنْطَلِقَ فِي عَدْوِي؛ فَقَدْ كَانَتْ سَنَايِلُ الْقَمَحِ — لَشِدَّةِ تَقَارِبِهَا — تَكَادُ تَلْتَصِقُ، وَكَانَ بَعْضُهَا لَا يَبْعُدُ عَنْ بَعْضٍ إِلَّا بِمَقْدَارِ قَدَمٍ وَاحِدٍ.



على أنني بذلت جُهدِي حتى وصلت إلى آخر مكانٍ أَسْتَطِيعُ الوصولَ إليه، إذِ اعْتَرَضَتْني كُومَاتٌ من السنابل المُشْتَبِكَةِ. ولقد حاولتُ أنْ أخترقَها أوْ أجُوسَ خلالها، فلم أجدُ إلى ذلك سبيلاً؛ فقد جف كثيرٌ منها، وأصبحَ حَسَكُها شائِكاً مَدْبِياً قوياً كأطرافِ المَدَى، فحَشِيتُ أنْ ينفذَ إلى جِسمي فيُهْلِكُنِي. وسمعتُ أصواتَ الحاصدين على مسافةٍ قَريبَةٍ مِنِّي، وكانَ الإِغْيَاءُ قد بلغَ مِنِّي كلَّ مبلغٍ؛ فتملَّكُنِي اليأسُ بعد أنْ خارتَ قُواي، فَرَقَدْتُ بينَ أُحْدُودَيْنِ من الأُخاديدِ التي شَقَّها المِحْرَاطُ، وقد يَبَسَّتْ من الحِياةِ وذكُرتُ وطني العَزيزَ، وتَصَوَّرْتُ أَرْمَلَتِي وولَدَيَّ اللذينِ أوْشَكا أنْ يَنبِتَما، وندمتُ أشدَّ الندمِ على جُنُوني الَّذِي دَفَعَنِي إلى هذه الرِّحْلةِ المشئومةِ، مخالِفاً نَصيحةَ خُلَصائِي وَتَشَفُّعِ أَهْلِي بي

أَلَا أَفَارِقَهُمْ، وَأَيَقِنْتُ أَنْ أَخِرْتِي قَدْ دَنَتْ. ثُمَّ ذَكَرْتُ بِلَادَ «لِيلِيْبُوْت» الَّتِي فَرَزْتُ مِنْهَا، وَكَيْفَ كُنْتُ فِيهَا عَمَلِقًا هَائِلًا بَيْنَ أَقْزَامِ صِغَارٍ، وَكَيْفَ اسْتَطَعْتُ أَنْ أُسْتَوِيَّ — بِمُفْرَدِي — عَلَى أُسْطُولِ إِمْبْرَاطُورِيَّةِ بَاسْرَهَا، وَكَيْفَ قُمْتُ وَحْدِي بِأَعْمَالِ جَلِيلَةٍ بَاهِرَةٍ سَتَبَقَى خَالِدَةً عَلَى مَرِّ الدُّهُورِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ، وَسَيَبْنُتُهَا التَّارِيخُ فَلَا يُصَدِّقُهَا ذَرَارِيُّ الْأَقْزَامِ وَحَفَدَتُهُمْ — لِعْرَابَتِهَا وَبُعْدِهَا عَنِ مَأْلُوفِهِمْ — وَإِنْ أَجْمَعَ أَسْلَافُهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ رَأَوْهَا رُؤْيَا الْعِيَانِ.

وَرَأَيْتُ الْفَرْقَ شَاسِعًا بَيْنَ الْحَالَيْنِ، فَفَاضَتْ نَفْسِي بِاللَّوَعَةِ وَالْأَلَمِ، فَقَدْ انْتَقَلْتُ حَالِي مِنَ الضَّدِّ إِلَى الضَّدِّ، وَأَصْبَحْتُ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ — لِفَرْطِ ضَالَّتِي — أَلُوْحٌ لِأَهْلِيهَا كَمَا كَانَ يَلُوْحٌ لِي أَقْزَامُ «لِيلِيْبُوْت»، وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ أَهْوَنُ مَا أَلْقَاهُ مِنَ الشَّقَاءِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ؛ فَقَدْ أَقْنَعَتْني التَّجْرِبَةُ وَالْمُلَاحَظَةُ أَنَّ الْمَحْلُوقَاتِ الْإِنْسَانِيَّةَ تَكْتَرُّ فَسُوتُهَا وَيَشْتَدُّ طُغْيَانُهَا، كَمَا قَوِي بِأَسْهَائِهَا وَاشْتَدَّتْ قُوَّتُهَا. وَثَمَّةَ أَصْبَحْتُ أَتْرَقُّبُ الْهَلَاكَ بَيْنَ لِحْظَةٍ وَأُخْرَى، وَأَتَوَقَّعُ أَنْ يُمَزَّقَنِي أَوَّلُ مَنْ يَظْفُرُ بِي مِنْ هَؤُلَاءِ الْعَمَالِقَةِ، وَأَنْ يَزِدَّ رِدْبِي بِسَهُولَةٍ.

## (٥) فِي قَبْضَةِ عَمَلِقٍ

لَقَدْ صَدَقَ الْفَلَّاسِفَةُ حِينَ قَالُوا: إِنَّ الْكِبَرَ وَالصَّغَرَ أَمْرَانِ نِسْبِيَّانِ؛ فَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا صَغِيرٌ مُطْلَقٌ أَوْ كَبِيرٌ مُطْلَقٌ، وَلَكِنَّ الشَّيْءَ إِذَا قَيَسَ إِلَى غَيْرِهِ ظَهَرَ كِبَرُهُ وَصِغَرُهُ بِالْمُقَايَسَةِ. وَمَنْ يَدْرِي؟ فَقَدْ يُصَارِفُ أَقْزَامُ «لِيلِيْبُوْت» أُمَّمًا أُخْرَى غَايَةً فِي الضَّالَّةِ، فَيَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ بَيْنَهُمْ — كَمَا وَجَدْتُ نَفْسِي بِالْقِيَاسِ إِلَيْهِمْ — عَمَالِقَةً بَيْنَ أَقْزَامٍ!

وَمَنْ يَدْرِي؟ فَلَعَلَّ عَمَالِقَةَ هَذِهِ الْبِلَادِ إِذَا وُوزِنُوا بِغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَّمِ الْمَجْهُولَةِ الَّتِي لَمْ تُكْشَفْ بَعْدُ، أَصْبَحُوا — بِالْقِيَاسِ إِلَيْهِمْ — أَقْزَامًا ضِئَالًا بَيْنَ عَمَالِقَةٍ كَبَارٍ!

وَلَا غَرَوُ فِي ذَلِكَ؛ فَقَدْ كُنْتُ عَمَلِقَ الْعَمَالِقَةِ فِي بِلَادِ الْأَقْزَامِ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ قَرَمَ الْأَقْزَامِ فِي بِلَادِ الْعَمَالِقَةِ، وَهَكَذَا:



يُسْتَصْغَرُ الْحَيُّ الْحَقِيرُ، وَتَحْتَهُ أُمٌّ تَوْهَمُ أَنَّهُ جَبَّارٌ

وإِنِّي لَعَارِقٌ فِي هَذِهِ الْأَفْكَارِ الْفَلَسَفِيَّةِ الَّتِي مَلَأَتْ نَفْسِي فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الْحَرِجِ الرَّاعِي، إِذْ رَأَيْتُ أَحَدَ الْحَاصِدِينَ عَلَى مَسَافَةِ ثَمَانِيَةِ أَمْتَارٍ مِنَ الْأُخْدُودِ الَّذِي اخْتَبَأْتُ فِيهِ؛ فَامْتَلَأْتُ نَفْسِي رُغْبًا، وَخَشَيْتُ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى الْأَمَامِ خُطْوَةً وَاحِدَةً، فَيَسْحَقَنِي بِقَدَمِهِ سَحَقًا، أَوْ يَهْوِي بِمَنْجَلِهِ إِلَى سَنَابِلِ الْقَمْحِ، فَيَقْطَعُ جِسْمِي مَعَهَا شَطْرَيْنِ. وَمَا رَأَيْتُهُ يَرْفَعُ قَدَمَهُ لِيَخْطُوَ خُطْوَةً أُخْرَى حَتَّى صَرَخَتْ صَرَخَاتٍ مَوْلَةً قَوِيَّةً، وَقَدْ مَلَأَ الرَّغْبُ نَفْسِي، فَوَقَفَ الْعِمْلَاقُ فَجَاءَ، وَأَخَذَ يَتَأَمَّلُ فِيمَا حَوْلَهُ وَيُنْعِمُ النَّظَرَ فِي الْأَرْضِ، لِيَرَى مَصْدَرَ هَذَا الصَّوْتِ الْخَافِتِ الَّذِي طَنَّ فِي أُذُنَيْهِ، حَتَّى اهْتَدَى إِلَيَّ، فَنَظَرَ مُتَعَجِّبًا مَدْهُوشًا مِنْ ضَالَّةِ جِسْمِي، وَدَنَا مِنِّي — وَقَدْ اشْتَدَّ حَذْرُهُ — كَمَا نَقَّرَبُ نَحْنُ مِنْ حَسْرَةٍ صَغِيرَةٍ خَطِرَةٍ لَا نَعْرِفُ



كُنْهَهَا، وَأَمْسِكْنِي مِنْ وَسْطِي — بِحَدَرٍ شَدِيدٍ — بَحَيْثُ يَأْمَنُ كُلَّ خَطَرٍ، فَقَدْ أَكُونُ —  
فِي نَظَرِهِ — حَيَوَانًا سَامًّا. وَكَأَنَّمَا حَيْثِي أَنْ أَعْضَهُ أَوْ أَخْدِشَهُ؛ فَذَكَرَنِي ذَلِكَ بِمَا فَعَلْتُ مَعَ  
ابْنِ عَرِيسٍ كُنْتُ قَدْ أَمْسَكْتُهُ مِنْ وَسْطِهِ، حَتَّى لَا يَعْضُنِي أَوْ يَخْدِشُنِي.



ثُمَّ تَشَجَّعَ قَلِيلًا، فَأَدْنَانِي حَتَّى أَصْبَحْتُ عَلَى مَسَافَةِ مِتْرٍ وَنِصْفِ مِتْرٍ مِنْ عَيْنَيْهِ؛  
لِيَتَبَّتَ مِنْ وَجْهِي بَدَقَةً.

وَقَدْ أَدْرَكْتَ غَرَضَهُ — لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ — فَلَمْ أَبْدِ أَيَّ مُقَاوِمَةٍ حَتَّى لَا يُبَيِّءَ الظَّنَّ بِي،  
فِيُلْقِينِي مِنْ يَدِهِ، فَأَهْوِي مِنْ ارْتِفَاعِ سِتِّينَ قَدَمًا أَوْ أَكْثَرَ. وَقَدْ شَعَرْتُ بِالْأَلْمِ شَدِيدٍ، فَلَمْ  
أُطِقْ ضَغْطَ أَصَابِعِهِ عَلَى جِسْمِي، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَرَفَّقَ بِي جُهْدَهُ، وَحَرَصَ عَلَى أَنْ يَقْبِضَ  
عَلَى جِسْمِي، حَتَّى لَا أَنْزَلِقَ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ الْكَبِيرَةِ.

وَلَمْ يَكُنْ فِي قَدْرَتِي أَنْ أَقَاوِمَ إِرَادَتَهُ؛ فَفَرَعْتُ بِبَصْرِي إِلَى السَّمَاءِ، وَضَمَمْتُ يَدِي إِلَيْهِ  
— كَمَا يَفْعَلُ الْمُتَوَسِّلُ الضَّارِعُ — وَاسْتَعْطَفْتُهُ بِبِضْعِ كَلِمَاتٍ نَطَقْتُ بِهَا بِصَوْتِي الْحَزِينِ  
الْمُتَهَدِّجِ. وَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى أَنْ يُلْقِينِي بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى إِلَى الْأَرْضِ، وَيَسْحَقَنِي بِقَدَمِهِ —  
كَمَا نَسْحَقُ الْحَشْرَاتِ الْكَرِيهَةَ بِأَقْدَامِنَا لِنُهْلِكَهَا — وَلَكِنَّ أَسَارِيرَهُ قَدْ تَطَلَّقَتْ، وَوَجْهَهُ قَدْ  
تَهَلَّلَ بِالْبِشْرِ، حِينَ سَمِعَ صَوْتِي وَرَأَى حَرَكَاتِي، وَأَطَالَ نَظْرَهُ فِيَّ، وَقَدْ بَدَتْ عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ  
مِنْ ضَالَّةِ جِسْمِي، وَاشْتَدَّ عَجَبُهُ حِينَ سَمِعَنِي أَنْطِقُ بِالْفَاطِظِ — كَمَا يَنْطِقُ الْأَدَمِيُّ — وَإِنْ

لم يَفْقَهْ لها مَعْنَى. ولم أَسْتَطِعْ أَنْ أَكْفَّ عَنِ التَّنَهُّدِ وَالزَّفَرَاتِ، وَهَمَلْتُ عَيْنَايَ بِالذَّمُوعِ، فَقُلْتُ لَهُ ضَارِعًا بَاكِيًا: «شَدَّ مَا يُؤْمِنِي لِمَسِّ إِصْبَعَيْكَ يَا سَيِّدِي الْعِمْلَاقِ!»  
 وكَأَنَّهَا فَطَنَ لِمَا شَعَرْتُ بِهِ مِنَ الْأَلَمِ — وَإِنْ لَمْ يَفْهَمْ قَوْلِي — فَوَضَعَنِي مُتَرَفِّقًا فِي جَيْبِهِ، وَأَنْطَلَقَ يَعْدُو إِلَى سَيِّدِهِ الَّذِي رَأَيْتُهُ فِي الْحَقْلِ مِنْ قَبْلُ، وَهُوَ زَارِعٌ غَنِيٌّ، وَمَا رَأَيْتُ حَتَّى دَهَشْتُ، وَأَخَذَ عُوْدًا صَغِيرًا مِنَ الْأَرْضِ — فِي حَجْمِ الْعِصَا الَّتِي نَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا فِي بِلَادِنَا — وَرَفَعَ بِهَا أَطْرَافَ ثَوْبِي وَهُوَ يَحْسَبُهُ غَطَاءً وَهَبْتَهُ لِي الطَّبِيعَةُ — كَمَا تَهَبُ لِلطُّيُورِ الرَّيِّشَ — وَنَفَّخَ فِي شَعْرِي لِئَتَبِينَ وَجْهِي بِوَضُوحٍ، ثُمَّ نَادَى خَدَمَهُ، وَقَالَ لَهُمْ — فِيمَا فَهَمْتُ مِنْ دَهْشَتِهِ وَإِشَارَاتِهِ — إِنَّهُ لَمْ يَرَ طَوَالَ حَيَاتِهِ حَيَوَانًا فِي حُقُولِهِ يُشْبِهُنِي. ثُمَّ وَضَعَنِي عَلَى الْأَرْضِ مُتَلَطِّفًا، فَهَضَمْتُ قَائِمًا، وَمَشَيْتُ أَمَامَهُ حَيْثُ وَدَهَابًا لِأَرِيهِ أَنَّنِي غَيْرُ طَامِعٍ فِي الْهَرَبِ. ثُمَّ جَلَسُوا جَمِيعًا، مُحِيطِينَ بِي إِحَاطَةَ الدَّائِرَةِ، وَظَلُّوا يَرَقُبُونَ حَرَكَاتِي، فَرَفَعْتُ قُبْعَتِي لِأَحْيِيَهُمْ.

وَأَظْهَرْتُ احْتِرَامِي لِذَلِكَ السَّيِّدِ، وَأَنْكَفَأْتُ عَلَى قَدَمَيْهِ ضَارِعًا إِلَيْهِ — بِصَوْتِ جَهْوَرِيٍّ — وَأَخْرَجْتُ مِنْ جَيْبِي كَيْسَ نَقُودِي، وَقَدَّمْتُهُ إِلَيْهِ بِخُضُوعٍ شَدِيدٍ؛ فَقَلَّبَهُ حَذْرًا — عِدَّةَ مَرَّاتٍ — بـ «دَبُّوسٍ» كَانِ فِي ثِيَابِهِ، وَلَمْ يَفْهَمْ مَا هُوَ، فَأَشْرَفْتُ إِلَيْهِ أَنْ يُعِيدَ الْكَيْسَ إِلَى الْأَرْضِ ثَانِيَةً، وَمَا أَعَادَهُ حَتَّى أَخَذْتُهُ بِيَدِي وَفَتَحْتُهُ، وَوَضَعْتُ فِي يَدِهِ كُلَّ مَا يَحْوِيهِ مِنَ الذَّهَبِ فَتَأَمَّلَهُ قَلِيلًا، وَأَشَارَ إِلَيَّ بِرَدِّهِ إِلَى جَيْبِي، وَلَمْ يَفْهَمْ مِنْهُ شَيْئًا. وَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنَّ ذَلِكَ الزَّارِعَ قَدْ اقْتَنَعَ بِأَنَّيَ أَدْمِيٍّ عَاقِلٌ صَغِيرٌ وَظَلٌّ يُحَدِّثُنِي كَثِيرًا وَأَنَا لَا أَفْهَمُ لِكَلِمَةٍ مَعْنَى. وَكَانَ صَوْتُهُ يَكَادُ يُصِمُّ أُذُنِي، وَهُوَ أَشْبَهُ بَجَلَجَلَةِ طَاحُونَةٍ كَبِيرَةٍ، وَكَانَتْ أَلْفَاظُهُ مُتَرَنِّةً وَاضِحَةً الْمَقَاطِعِ، فَأَجَبْتُهُ عَلَى كَلِمَاتِهِ — الَّذِي لَمْ أَفْهَمْهُ — بِكُلِّ اللُّغَاتِ الَّتِي أَعْرِفُهَا، بِصَوْتِ جَهْوَرِيٍّ؛ فَكَانَ يُدْبِي أَدْنَهُ مِنِّي حَتَّى تَكُونَ عَلَى قَيْدِ مِثْرٍ وَنِصْفِ مِثْرٍ مِنْ فَمِي، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ شَيْئًا.

## (٦) فِي بَيْتِ الْعِمْلَاقِ

وَبَعْدَ قَلِيلٍ صَرَفَ خَدَمَهُ إِلَى أَعْمَالِهِمْ، وَأَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ مِئْدِيلًا طَوَاهُ نِصْفَيْنِ، ثُمَّ بَسَطَهُ عَلَى صَفْحَةِ يَدِهِ الْيُسْرَى، وَوَضَعَهَا عَلَى الْأَرْضِ، وَأَشَارَ إِلَيَّ بِأَنْ أَصْعَدَ عَلَى يَدِهِ؛ فَلَمْ أَجِدْ

صُعُوبَةً فِي ذَلِكَ، فَقَدِ كَانَتْ يَدُهُ أَكْبَرَ مِنْ جِسْمِي كُلِّهِ. وَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَهْوِيَ مِنْ يَدِهِ — إِذَا وَقَفْتُ عَلَيْهَا — إِلَى الْأَرْضِ؛ فَطَرَحْتُ نَفْسِي فَوْقَ مَنْدِيلِهِ مَتَمِّدًا.



ثُمَّ ثَنَى الْمَنْدِيلَ عَلَيَّ فَغَطَّى جِسْمِي كُلَّهُ، وَحَمَلَنِي فِي يَدِهِ إِلَى بَيْتِهِ، ثُمَّ نَادَى زَوْجَهُ لِطَرِيحِهَا الْعَجِيبَةَ الَّتِي حَصَلَ عَلَيْهَا. وَمَا رَأَيْتُنِي حَتَّى صَرَخَتْ صَرَخَاتٍ مُفْزِعَةٍ، وَتَرَاجَعَتْ إِلَى الْوَرَاءِ — كَمَا تَفْعَلُ نِسَاؤُنَا إِذَا أَبْصَرْنَ وَزَعًا أَوْ ضَفْدِعًا سَامًّا أَوْ عَنَكَبًا — وَلَكِنَّهَا أَطْمَأَنَّتْ إِلَيَّ بَعْدَ قَلِيلٍ، حِينَ رَأَتْ إِشَارَاتِي وَحَرَكَاتِي وَأَعْمَالِي، وَكَيْفَ أَفْطَنُ إِلَى الْإِشَارَاتِ الَّتِي يُبْدِيهَا لِي زَوْجُهَا، ثُمَّ أَلْفَتُ رُؤْيِي وَأَحْبَبْتَنِي حُبًّا شَدِيدًا.

وَلَمَّا جَاءَ وَقْتُ الظُّهْرِ أَعَدَّ الْخَادِمُ مَائِدَةَ الْغَدَاءِ؛ فَرَأَيْتُ أَكْدَاسًا مِنَ اللَّحْمِ فِي صَحْفَةٍ قَطَرُهَا نَحْوُ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ قَدَمًا، وَجَلَسَ الزَّارِعُ وَزَوْجُهُ وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَوْلَادِهِ وَجَدَّةٌ عَجُوزٌ حَوْلَ الْمَائِدَةِ. وَمَا اسْتَقَرُّوا فِي أَمَاكِنِهِمْ، حَتَّى أَجْلَسَنِي الزَّارِعُ فَوْقَ الْمَائِدَةِ عَلَى مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُ.



وكان ارتفاع المائدة لا يقل عن ثلاثين قدماً؛ فابتعدت عن حافتيها حتى لا أسقط  
إلى الأرض من هذا الارتفاع العظيم.

وقطعت الزوج شريحة من اللحم وكسرة من الخبز، ووضعتهما في طبق من  
الخشب لإكل منهما؛ فأشرت لها شاكرًا ما تفضلت به عليّ. ثم أخرجت من جيبِي سِكِّينِي  
وشوكتي، وأكلت؛ فكان ابتهاجهم بذلك عظيمًا.

ثم أمرت الزوج إحدى خدَمِها بإحضار قَدَحٍ صغير، وملأته ماءً، فلم أستطع أن  
أرفعه إلى فمي إلا بعد جهدٍ شديد. ثم أشار إليّ الزارع أن أقرب من صحفة الطعام،  
فلبيتُ إشارته مسرعًا في سيري فوق المائدة، فتكأدتني - في طريقي - قطعة صغيرة  
من الخبز، فسقطت على وجهي. ولكنني - لحسن حظي - لم أصب بسوءٍ، فوقفتُ  
على قدمي فرايتُ على أساريهم أمارات العطف والإشفاق، ودلائل الحنو، فابتسمت لهم  
مُخَنِّبًا عدّة مرّات، شاكرًا عطفهم عليّ، وأظهرت لهم أنني لم أصب بسوءٍ، وسرتُ نحو  
السيد لألثم يده، وما دنوتُ من أصغر أولاده - وهو طفلٌ خبيثٌ لم يعد العاشرة من  
عمره - حتى أمسك بساقيّ، ورفعني في الهواء، فامتلات نفسي رُعبًا وهلعًا، وأسرع أبوه  
فأنقذني من يده، وصفعه على أذنه اليسرى - جزاءً وقاحتِه - صَفْعَةً قويّة، لو لطم  
بها كوكبة من فُرساننا لأماتهم جميعًا!

ثم أمره أن يكف عن الأكل ويذهب بعيدًا عن المائدة، عقابًا له على عمله. ولكنني  
خشيتُ أن يضطغن عليّ ذلك الطفل، وأنا أعلم أن أكثر الأطفال - في مثل هذه السن

— حَمَقَى مُتَهَوِّرُونَ، وَكَثِيرًا مَا تَدْفَعُهُمْ حَمَاقَتَهُمْ وَتَهَوِّرُهُمْ إِلَى إِيْذَاءِ الطُّيُورِ وَالْأَرَانِبِ وَصِغَارِ الْكِلَابِ، فَجَنُوتُ عَلَى رُكْبَتَيْ مُسْتَعْطَفَا السَّيِّدِ عَلَى وَلَدِهِ لِيُصْفَحَ عَنْهُ، فَأَجَابَ السَّيِّدُ رَجَائِي، وَصَفَحَ عَنْ طِفْلِهِ، وَأَعَادَهُ إِلَى مَكَانِهِ مِنَ الْمَائِدَةِ، فَتَقَدَّمْتُ مِنَ الطِّفْلِ، وَلَثَمْتُ يَدَهُ؛ فَابْتَهَجَ وَسُرِّيَ عَنِ نَفْسِهِ، وَأَصْبَحَ صَدِيقًا حَمِيمًا لِي مِنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

## (٧) مَازِقُ مُخْرَجَةٌ

وَإِنِّي لِأَتَعَدَّى مَعَهُمْ — وَأَنَا أَمِنْ مُطْمَئِنٌّ — إِذْ قَفَزَ عَلَى الْمَائِدَةِ قَطُّ السَّيِّدَةِ — الْمُدَلَّلُ الْمَحْبُوبُ — قَفْزَةً عَنِيفَةً؛ فَأَحْدَثْتُ جَلْبَةً وَضَوْضَاءَ أَرْعَجْتَانِي وَمَلَأَتْ قَلْبِي خَوْفًا. وَكَانَ ذَلِكَ الْقَطُّ فِي مِثْلِ ضَخَامَةِ ثَلَاثَةِ ثِيرَانٍ، فَإِذَا مَاءٌ سَمِعْتُ لِمَوَائِهِ مِثْلَ قَصْفِ الرُّعُودِ وَجَلَجَلَتْهَا. وَقَدْ رَأَيْتُ السَّيِّدَةَ تَحْنُو عَلَيْهِ وَتُدَلِّشُهُ وَتُقَدِّمُ إِلَيْهِ الطَّعَامَ، وَهِيَ تُدَاعِبُهُ وَتُرَبِّتُهُ؛ فَامْتَلَأْتُ نَفْسِي رُغْبًا مِنْ رُؤْيَا هَذَا الْحَيْوَانِ الشَّرِّسِ عَلَى الطَّرْفِ الْآخِرِ مِنَ الْمَائِدَةِ، وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ مَسَافَةٌ خَمْسِينَ قَدَمًا. وَكَانَتِ السَّيِّدَةُ مُمَسِّكَةً بِقِطْعَتِهَا حَتَّى لَا يَنْقُصَ عَلَيَّ فَيَزْدَرِدَنِي — كَمَا تَزْدَرِدُ قِطَاطُنَا الْحَشْرَاتِ — وَلَكِنَّ اللَّهَ كَتَبَ لِي السَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ سَوْءٍ؛ فَلَمْ يَلْتَفِتِ الْقِطُّ إِلَيَّ. وَبَعْدَ قَلِيلٍ أَجْلَسَنِي السَّيِّدُ عَلَى بُعْدِ مِثْرَيْنِ وَنِصْفِ مِثْرٍ مِنَ الْقِطِّ، لِيَرَى كَيْفَ أَصْنَعُ. وَلَقَدْ كُنْتُ وَائِقًا كُلَّ التَّقَةِ أَنْ الْجُبْنَ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَوَاطِنِ كَثِيرًا مَا يَقُودُ الْإِنْسَانَ إِلَى حَتْفِهِ، فَإِذَا هَرَبَ الْإِنْسَانُ مِنْ حَيْوَانٍ مَفْتَرَسٍ — أَوْ ظَهَرَ عَلَيْهِ الْخَوْفُ — تَعَقَّبَهُ ذَلِكَ الْحَيْوَانُ وَطَمَعَ فِيهِ، وَأَسْرَعَ إِلَى افْتِرَاسِهِ، فَاعْتَزَمْتُ أَنْ أَلْجَأَ إِلَى الصَّبْرِ، وَأَعْتَصِمَ بِشَجَاعَتِي أَمَامَ هَذَا الْقِطِّ الْمُتَوَحِّشِ الشَّرِّسِ، فَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ نَحْوَ ثَمَانِي عَشْرَةَ إصْبَعًا — وَأَنَا رَابِطُ الْجَأِشِ — فَتَرَاجَعَ الْقِطُّ أَمَامِي تَرَاجَعَ الْخَائِفِ الْحَذِرِ.

أَمَا حَوْفِي مِنَ الْكِلَابِ فَقَدْ كَانَ أَقَلَّ مِنْ حَوْفِي مِنَ الْقِطِّ؛ فَقَدْ دَخَلَ الْعُرْفَةَ ثَلَاثَةَ كِلَابٍ أَوْ أَرْبَعَةً — فِيمَا أُنْكَرُ — وَرَأَيْتُ فِي هَذِهِ الْكِلَابِ كَلْبًا كَبِيرًا جِدًّا. وَهُوَ فِي مِثْلِ ضَخَامَةِ أَرْبَعَةِ أَفْيَالٍ، وَرَأَيْتُ كَلْبًا آخَرَ مِنْ كِلَابِ الصَّيِّدِ، يَفُوقُهُ طَوْلًا، وَيَقِلُّ عَنْهُ ضَخَامَةً. وَمَا انْتَهَيْتُ مِنْ طَعَامِ الْغَدَاءِ حَتَّى دَخَلْتُ إِحْدَى الْمُرْضِعَاتِ، وَهِيَ تَحْمِلُ بَيْنَ زِرَاعَيْهَا رَضِيعًا لَمْ تَتَجَاوَزْ سِنُهُ الْحَوْلِ. وَمَا رَأَيْتُ ذَلِكَ الرَّضِيْعَ حَتَّى مَلَأَ الْبَيْتَ صُرَاخًا مَزْعَجًا، وَكَأَنَّهَا حَسِبَنِي دُمِيَّةً يَلْهُوُ بِهَا؛ فَأَمْسَكْتَنِي أُمُّهُ وَأَدْنَتْنِي إِلَيْهِ. وَمَا فَعَلْتُ حَتَّى أَمْسَكَ بِي ذَلِكَ الرَّضِيْعُ، وَوَضَعَ رَأْسِي فِي فِيهِ، فَصَرَخْتُ مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ وَالرُّغْبِ، فَذَعَرَ

الطفل، وألقاني من يده، فَهَرَبْتُ. وقد كان رأسي لا بُدَّ متهشماً لو لم أقع على ثوب أمه الذي فرشته تحتي. وقد حاولت المرزعة أن تترضى رضيعها بوسائل أخرى، فلم تفلح، فلما عجزت عن تسليته أرضعته، فكف عن الصياح!



ولما انتهينا من الغداء تاهب السيد للخروج، وقد أوصى بي السيدة خيراً، كما فهمت من إشارته التي أشعرتني بحرصه على العناية بأمرى.  
وشعرت بحاجة شديدة إلى الرقاد — بعد أن جهدي التعب — وفطنت ربة الدار إلى ذلك؛ فأرقدتني في سريرها، وغطتني بمنديل أبيض لا يقل في حجمه عن شرع أكبر سفينة حربية.

وما أَطْبَقْتُ جَفَنِيَّ حَتَّى اسْتَسَلَمْتُ لِنَوْمٍ عَمِيقٍ. وَقَدْ رَأَيْتُ — فِي مَنَامِي — أَنَّنِي قَدْ عُدْتُ إِلَى مَنْزِلِي، وَنَعَمْتُ بِالْقَرَبِ مِنْ أُسْرَتِي؛ فَفَرِحَ بَعُودَتِي وَلِدِي وَابْنَتِي وَرَوْجَتِي. ثُمَّ اسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمِي بَعْدَ سَاعَتَيْنِ، فَزَادَتْ لَوْعَتِي وَحَنِينِي إِلَى وَطْنِي وَأَهْلِي، وَوَجَدْتُني وَحِيدًا فِي حُجْرَةٍ فَسِيحَةٍ يَزِيدُ عَرْضُهَا عَلَى ثَلَاثِمِائَةِ قَدَمٍ، وَارْتِفَاعُهَا عَلَى مِائَتِي قَدَمٍ، وَلَا يَقِلُّ عَرْضُ السَّرِيرِ عَنْ ثَمَانِيَةِ عَشَرَ مِترًا. وَكَانَتْ رَبَّةُ الدَّارِ قَدْ أَغْلَقَتْ عَلَيَّ الْبَابَ، وَذَهَبَتْ لِتُنْجِزَ أَعْمَالَ بَيْتِهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِي مَقْدُورِي أَنْ أَهْبِطَ إِلَى الْأَرْضِ، لِارْتِفَاعِ السَّرِيرِ عَنْهَا بِمِقْدَارِ سَبْعَةِ أمتارٍ. وَقَدْ اشْتَدَّتْ حَاجَتِي إِلَى الْخُرُوجِ، وَلَمْ يَكُنْ صَوْتِي — إِذَا نَادَيْتُ — بِبَالِغِ سَمْعِ سُكَّانِ الْبَيْتِ، لِبُعْدِ الْمَسَافَةِ بَيْنِي وَبَيْنَ حُجْرَةِ الْمَطْبَخِ الَّتِي ذَهَبَتْ إِلَيْهَا تِلْكَ الْأُسْرَةُ، عَلَى أَنَّنِي نَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي الضَّعِيفِ، فَلَمْ يَسْمَعْنِي أَحَدًا!

### (٨) صِرَاعُ عَنِيْفُ

وَرَأَيْتُ فَأَرَيْنِ يَتَسَلَّقَانِ سَتَائِرَ السَّرِيرِ، وَقَدْ هَالَتْنِي ضَخَامَتُهُمَا وَكِبَرُ حَجْمِهِمَا. ثُمَّ أَقْبَلَ الْفَارَانَ وَهِيَ يَجْرِيَانِ، فَدَنَا أَحَدُهُمَا مِنْ وَجْهِي؛ فَفَزِعْتُ — مِنْ ذَلِكَ — أَشَدَّ الْفَزَعِ، وَسَلَّلْتُ سَيْفِي لِلدَّفَاعِ عَنِ نَفْسِي.



وقد طَمِعَ الْفَأْرَانِ فِيَّ لَمَّا رَأَىٰأَهُ مِنْ ضَالَّةٍ جَسْمِي — وَكَانَا غَايَةً فِي الْقِحَّةِ — فَهَجَمَا عَلَيَّ يُحَاوِلَانِ افْتِرَاسِي.  
فَعَاجَلْتُ أَحَدَ الْفَأْرَيْنِ بِضَرْبَةِ حُسَامٍ عَنِيفَةٍ؛ فَشَقَّقْتُ بَطْنَهُ لِلْحَالِ، وَخَرَّ صَرِيحًا عَلَى الْأَرْضِ مُضَرَّجًا بِدَمِهِ.



وَمَا رَأَى الْفَأْرُ الْآخَرَ مَضْرَعٌ صَاحِبِهِ، حَتَّى خَافَ عَلَى نَفْسِهِ الْهَلَكَ؛ فَاسْرَعَ يَعْذُو هَارِبًا، وَهُوَ لَا يَكَادُ يُصَدِّقُ بِالنَّجَاةِ، وَهَكَذَا انْجَلَّتِ الْمَعْرَكَةُ عَنْ فَوْزِي وَانْتِصَارِي عَلَى الْفَأْرَيْنِ؛ فَاسْتَلْقَيْتُ عَلَى ظَهْرِي ثَانِيَةً لِاسْتَرِيحَ مِنَ الْعَنَاءِ، وَاسْتَسَلَمْتُ لِلْأَفْكَارِ.  
وَلَقَدْ كَانَ كُلُّ فَأْرٍ مِنْهُمَا فِي مِثْلِ ضَخَامَةِ أَكْبَرِ كَلْبٍ عِنْدَنَا، وَقَدْ كُنْتُ وَاثِقًا مِنْ شَرَّاسَتِهِمَا؛ فَحَمَدْتُ اللَّهَ عَلَى أَنْ أَنْقَذَنِي مِنْ شَرِّهِمَا، وَنَصَّرَنِي عَلَيْهِمَا، وَلَوْ أَنَّنِي خَلَعْتُ حُسَامِي قَبْلَ أَنْ أَنَامَ، وَوَاجَهْتُ هَذَيْنِ الْفَأْرَيْنِ وَأَنَا أَعَزَّلُ، لَافْتَرَسَانِي، لَا مَحَالَةَ.



وبعدَ وقتٍ قليلٍ جاءتْ رَبَّةُ الدَّارِ، وما فَتَحَتْ بَابَ الحُجْرَةِ، ورَأَتْني مُخَضَّبًا بالدَّمِ، حتى أَسْرَعْتُ إِلَيَّ، وأمسكتني بيدها، وأدنتني من بَصَرِها لِتَطْمِئِنَّ عَلَيَّ، فأشرتُ بإصبعي مُبْتَسِمًا إلى حيثُ الفأرُ الذي صرَعْتُهُ، وأفهمتها أنني لم أصبِ بِسُوءٍ؛ ففرحتُ لسلامتي، وأبدتُ إعجابها بشجاعتِي!



ثم أَشْرْتُ إليها أن تَصْعَنِي على الأرض، فلم تتردَّدْ في تَلْبِيَةِ طَلْبِي، فأشرتُ إليها باحترامٍ أنني في حاجةٍ إلى الخُرُوجِ، فأدنت لي في ذلك. وكأَنَّما فهمتْ بِدَكائِها أنني في حاجةٍ إلى الخُرُوجِ لِصُرُورَةِ حاتِمَةٍ لا يَفْضِيها غَيْرِي؛ فأشارت إلى الباب الذي يَقُودُنِي إلى

## الفصل الأول

الحديقة، ورفَعَنِي في يدها، وسارَت بي قليلاً، ثم وضعتني على الأرض بين ورَقَتَيْن من أوراقِ البُقُولِ، وعادت من حيثُ أتتُ.



## الفصل الثاني

### (١) بِنْتُ الزَّارِعِ

كان للزَّارِعِ بنتٌ في التَّاسِعَةِ من عُمْرِهَا، وكانت — على صِغَرِ سِنِّهَا — حَصِيْفَةً نَادِرَةً الذِّكَاةِ. وقد عُيِّنَتْ بِشَأْنِي مُدَّةَ إِقَامَتِي هُنَاكَ، وَاسْتَأْذَنْتْ أَمَّهَا فِي أَنْ تُعَدَّ لِي — فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ — سَرِيرًا صَغِيرًا يُنَاسِبُ ضَالَّةَ جِسْمِي؛ فلم تَرَ أَصْلَحَ مِنَ الْأَرْجُوْحَةِ الَّتِي اخْتَارَتْهَا — مِنْ قَبْلِ — لِدُمِيَّتِهَا، فَهَيَّأَتْ لِي تِلْكَ الْأَرْجُوْحَةَ الصَّغِيرَةَ، وَوَضَعَتْهَا فِي صُنْدُوقِ صَغِيرٍ عَلَى مَنْصَدَةٍ صَغِيرَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي وَسْطِ الْحَجْرَةِ، حَتَّى تُؤْمِنَنِي شَرَّ الْفِيرَانِ.



وقد ظَلَّتْ هَذِهِ الْأَرْجُوْحَةُ سَرِيرَ نَوْمِي مُدَّةَ إِقَامَتِي فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ الْكَرِيمِ. وَكَانَتْ تِلْكَ الطِّفْلَةَ غَايَةً فِي الْوَفَاءِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْإِسْتِقَامَةِ؛ فَهِيَ تَجْمَعُ — إِلَى مَهَارَتِهَا وَحِدْقِهَا — حَنَانًا وَعَطْفًا نَادِرَيْنِ، وَقَدْ خَاطَتْ لِي سِتَّةَ قُمْصَانٍ مِنْ أَثْوَابِ هَذِهِ الْبَلَدِ، وَهِيَ أَثْوَابٌ بَيْضٌ، غَايَةٌ فِي الرِّقَّةِ، وَإِنْ كَانَتْ — عَلَى الْحَقِيقَةِ — لَا تَقَلُّ فِي كَثَافَتِهَا عَنِ الْأَثْوَابِ الَّتِي يُصْنَعُ مِنْهَا شِرَاعُ أَكْبَرِ السُّفُنِ عِنْدَنَا. وَكَانَتْ تَغْسِلُ ثِيَابِي، وَتُعْنَى بِشَأْنِي

عِنَايَةً فَائِقَةً، كَمَا كَانَتْ تَحْرِصُ أَشَدَّ الْحَرِصِ عَلَى تَلْقِينِي لِعَتَّهُمْ، فَلَا تَتْرُكُ فِرْصَةً وَاحِدَةً تَمُرُّ دُونَ أَنْ تَنْتَهَرَهَا؛ فَإِذَا أَشْرْتُ بِإِصْبَعِي إِلَى شَيْءٍ بَادَرْتُ بِتَسْمِيَتِهِ لِي، فَلَمْ يَمُرَّ عَلَيَّ وَقْتُ قَصِيرٍ حَتَّى أَصْبَحْتُ أُسْمِي مَا أُرِيدُ. وَقَدْ أَطْلَقْتُ عَلَيَّ اسْمَ «الْقَزَمِ» كَمَا أَطْلَقْتُ عَلَيْهَا اسْمَ «الْحَاضِنَةِ»؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ لِي — عَلَى صِغَرِهَا — كَالأَمِّ الرَّؤُومِ، وَقَدْ كَانَ لَهَا أَكْبَرُ الْفَضْلِ فِي تَعْلُمِي تِلْكَ اللُّغَةَ. وَلَسْتُ أَنْسَى عَطْفَهَا عَلَيَّ، وَجَمِيلَ صُنْعِهَا بِي، مَا حَيَّيْتُ.

## (٢) الضَّيْفُ النَّقِيلُ

وَقَدْ ذَاعَ فِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ الْمَدِينَةِ أَنَّ أَحَدَ أَعْيَانِهَا قَدْ عَتَرَ — فِي حَقْلٍ مِنْ حُقُولِهِ — عَلَى حَيَوَانٍ صَغِيرِ الْجِسْمِ، فِي صُورَةِ أَدَمِيٍّ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى تَقْلِيدِ الْإِنْسَانِ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِ وَأَعْمَالِهِ وَكَلَامِهِ، وَأَنَّهُ يَعْرِفُ كَثِيرًا مِنَ الْأَفَاظِ لُغَتِهِمْ وَيَسِيرٌ عَلَى قَدَمَيْهِ كَمَا يَسِيرُ النَّاسُ، وَهُوَ دَمْتُ الْأَخْلَاقِ، سَهْلُ الْإِقْيَادِ، لَطِيفُ الْمَعَاشَرَةِ، يُلَبِّي مِنْ يُنَادِيهِ، وَيُطِيعُ مَا يُؤَمِّرُ بِهِ، وَهُوَ غَايَةٌ فِي ضَالَةِ الْجِسْمِ، وَرِقَّةِ الْبَشَرَةِ، وَبِيَاضِ اللَّوْنِ.

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ وَقَدْ أَحَدُ الْجِيرَانِ إِلَى بَيْتِ السَّيِّدِ لِيَتَحَقَّقَ صِدْقَ مَا سَمِعَهُ عَنِّي، وَكَانَ ذَلِكَ الضَّيْفُ صَدِيقًا حَمِيمًا لِرَبِّ الدَّارِ، وَهُوَ زَارِعٌ مِثْلَهُ، وَكَانَ شَيْخًا طَاعِنًا فِي السَّنِّ. وَمَا أَظْهَرَ لِلسَّيِّدِ شَوْقَهُ إِلَى رُؤْيَتِي، حَتَّى أَحْضَرَنِي إِلَيْهِ، وَوَضَعَنِي فَوْقَ الْمَائِدَةِ، وَأَمْرَنِي بِالسَّيْرِ عَلَيْهَا أَمَامَهُ؛ فَلَمْ أَتَرَدَّدْ فِي إِطَاعَةِ أَمْرِهِ، ثُمَّ سَلَلْتُ حُسَامِي أَمَامَهُ، وَأَعْمَدْتُهُ ثَانِيَةً، وَلَمْ أَدْخُرْ وَسْعًا فِي تَكْرِيمِ الضَّيْفِ، وَالتَّوَدُّدِ إِلَيْهِ، وَإِظْهَارِ كُلِّ احْتِرَامٍ لَهُ، وَقَدْ حَيَّيْتُهُ بِلُغَتِهِ، وَرَحَّبْتُ بِهِ، وَسَأَلْتُهُ مُتَأَدِّبًا عَنْ صِحَّتِهِ، وَلَمْ أَنْسَ شَيْئًا مِمَّا أَشَارَتْ عَلَيَّ بِهِ حَاضِنَتِي الصَّغِيرَةُ. وَكَانَتْ الشَّيْخُوخَةُ قَدْ أَضْعَفَتْ بَصَرَ هَذَا الشَّيْخِ الطَّاعِنِ فِي السَّنِّ؛ فَأَخْرَجَ مِنْظَارَهُ لِتَتَبَّنَ لَهُ صُورَتِي، فَلَمْ أَتَمَّاكْ أَنْ أَضْحَكَ. وَكَأَنَّمَا أَدْرَكَ أَفْرَادَ الْأُسْرَةِ سِرَّ ضَحِكِي، فَأَغْرَبُوا فِي الضَّحِكِ جَمِيعًا؛ فَامْتَعْضَ الشَّيْخُ، وَظَهَرَتْ عَلَى أَسَارِيرِهِ أَمَارَاتُ الْغَضَبِ، وَاضْطَعَنَ عَلَيَّ، وَلَكِنَّهُ أَسَرَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ، وَعَزَمَ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنِّي فِي الْحَالِ، فَأَوْحَى إِلَى رَبِّ الْبَيْتِ أَنْ يُعْرِضَنِي فِي الْأَسْوَاقِ لِيَكْسَبَ بِذَلِكَ مَالًا طَائِلًا، وَأَقْنَعَهُ بِأَنَّ جَمِيعَ السُّكَّانِ — فِي مُخْتَلَفِ الْمَدِينِ — سَيَقْبَلُونِ عَلَى رُؤْيَتِي، وَلَا يَتَرَدَّدُونَ فِي دَفْعِ مَا يَطْلُبُهُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَجْرِ.

وفي صباح الغد أَخْبَرْتَنِي الْحَاضِنَةُ الصَّغِيرَةُ بِكُلِّ مَا قَالَهُ الشَّيْخُ الْحُقُودُ. وقد بَكَتْ مِنْ ذَلِكَ بِدُمُوعٍ غَزِيرَةٍ، وَخَشِيَتْ أَنْ يُصِيبَنِي أَدَى مِنْ بَعْضِ النَّظَارَةِ الَّذِينَ قَدْ يَدْفَعُهُمُ الْفُضُولُ إِلَى الْعُنْفِ بِي، وَأَكْثَرَهُمْ قَسَاةُ غِلَظِ الْقُلُوبِ.

وقد أَظْهَرَتْ لِي أَلَمَهَا الشَّدِيدَ مِنْ مُقْتَرِحِ ذَلِكَ الشَّيْخِ، وَقَالَتْ لِي: «إِنَّ أَبَوَيَّ قَدْ وَعَدَانِي — مِنْ قَبْلُ — بِأَنَّكَ سَتَكُونُ لِي وَحْدِي، وَلِكِنَّهُمَا أَخْلَفَا وَعَدَهُمَا حِينَ لَاحَتْ لِهَمَا الْفَائِدَةُ، كَمَا أَخْلَفَا وَعَدَهُمَا — فِي الْعَامِ الْمَاضِي — حِينَ أُعْطِيَانِي حَمَلًا، ثُمَّ بَاعَاهُ لِأَحَدِ الْقَصَّابِينَ بَعْدَ أَنْ سَمَّيْتُهُ، وَلَاحَتْ لِهَمَا الْفَائِدَةُ فِي بَيْعِهِ.»

أَمَّا أَنَا، فَقَدْ كُنْتُ — عَلَى الْحَقِيقَةِ — أَقَلَّ أَلَمًا مِنْهَا؛ لِأَنِّي كُنْتُ أَشْعُرُ بِشَوْقٍ شَدِيدٍ إِلَى رُؤْيَةِ النَّاسِ وَالِاخْتِلَاطِ بِهِمْ، لَعَلِّي أَجِدُ فِي ذَلِكَ وَسِيلَةً إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ، أَوْ تَتَّاحُ لِي فُرْصَةٌ لِلْعُودَةِ إِلَى وَطَنِي.

### (٣) فِي أَسْوَاقِ الْمَدِينِ

وبعد أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ أَعَدَّ السَّيِّدُ كُلَّ مَعْدَاتِ السَّفَرِ، عَمَلًا بِنَصِيحَةِ صَاحِبِهِ الشَّيْخِ، ثُمَّ وَضَعَنِي — فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ — فِي صُنْدُوقٍ صَغِيرٍ، وَسَارَ بِي إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُجَاوِرَةِ، وَمَعَهُ ابْنَتُهُ الصَّغِيرَةُ. وَكَانَ الصُّنْدُوقُ مُقْفَلًا، وَفِيهِ عِدَّةُ ثَقُوبٍ لِتَجْدِيدِ الْهَوَاءِ حَتَّى لَا أُخْتِنِقَ. وَقَدْ عُنَيْتُ بِي تِلْكَ الْحَاضِنَةُ الرَّقِيقَةُ؛ فَوَضَعَتْ فِي أَسْفَلِ الصُّنْدُوقِ فِرَاشًا وَثِيرًا، حَتَّى لَا أَتَأَلَّمَ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ. وَلَمْ يُكَبِّدْهَا ذَلِكَ أَيَّ عَنَاءٍ، فَقَدْ وَضَعَتْ فِي الصُّنْدُوقِ الْفِرَاشَ الَّذِي كَانَتْ قَدْ أَعَدَّتْهُ — مِنْ قَبْلُ — لِنَوْمِي فِي أَرْجُوْحَةٍ دُمَيْتِهَا الصَّغِيرَةِ. وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِلَّا فِرَاشَ الدُّمَيْةِ الَّتِي أَحَلَّتَنِي الْحَاضِنَةُ مَكَانَتَهَا، وَخَصَّتَنِي بِكُلِّ عِنَايَتِهَا، بَعْدَ أَنْ اسْتَبَدَّلْتَنِي بِالِدُّمَيْةِ؛ لِأَنَّ الدُّمَيْةَ كَانَتْ — لِحَسَنِ حَظِّي — جَامِدَةً صَامِتَةً، لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحِيرَ جَوَابًا، أَمَّا أَنَا فَقَدْ كُنْتُ — عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ — دُمَيْةً نَاطِقَةً، رَشِيقَةً الْحَرَكَاتِ، طَبِيعَةً، مُلْبِيَّةَةً كُلَّ مَا يُطَلَّبُ مِنْهَا.

وَلَا أَكْتُمُ الْقَارِيَّ أَنَّنِي عَانَيْتُ — فِي تِلْكَ الرَّحْلَةِ الْقَصِيرَةِ الَّتِي لَمْ تَتَجَاوَزْ نِصْفَ سَاعَةٍ — كُلَّ أَنْوَاعِ الْأَلَامِ، فَقَدْ كَانَ الْجَوَادُ يَسِيرُ بِسُرْعَةٍ وَهُوَ يَغْلُو وَيَهْبِطُ فِي أَثْنَاءِ سَيْرِهِ، فَيَرْجُئُنِي فِي الصُّنْدُوقِ رَجًّا عَنيفًا. وَكَانَ الْجَوَادُ — لِضَخَامَتِهِ — يَقَطُعُ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ

يَخْطُوهَا نَحْوَ أَرْبَعِينَ قَدَمًا. وَكَنتُ فِي الصُّنْدُوقِ أَشْبَهَ بِسَفِينَةٍ تَعْلُو وَتَهْبِطُ وَسَطَ عَاصِفَةٍ هَوَاجًا، وَكَانَتِ الْمَسَافَةُ الَّتِي قَطَعْنَاهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الْقَصِيرِ مَسَافَةً طَوِيلَةً جِدًّا. وَلَمَّا وَصَلْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ نَزَلَ السَّيِّدُ عَن جَوَادِهِ، وَتَرَجَّلَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى فُنْدُوقٍ كَبِيرٍ، فَاكْتَرَاهُ مِنْ صَاحِبِهِ، وَأَرْسَلَ الْمُنَادِينَ يَطُوفُونَ شَوَارِعَ الْمَدِينَةِ وَدُرُوبَهَا؛ لِئَدْبِعُوا بَيْنَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ أَحْضَرُوا حَيَوَانًا صَغِيرًا يُمَاطِلُ الْإِنْسَانَ فِي جِسْمِهِ وَشَكْلِهِ وَهَيْئَتِهِ وَكَلَامِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ الْحَيَوَانَ الْإِدْمِيَّ الضَّئِيلَ يَنْطِقُ — كَمَا يَنْطِقُ النَّاسُ — وَيَقُومُ بِالْعَابِ عَجِيبَةٍ فِي مَهَارَةٍ فَائِقَةٍ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ لِيَتَحَقَّقُوا صِدْقَ مَا سَمِعُوا، وَرَأَى السَّيِّدُ أَنَّ يُقَلَّ مِنْ زِحَامِهِمْ، فَلَمْ يَسْمَحْ — فِي كُلِّ مَرَّةٍ — لِأَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ رَجُلًا بِالْدُخُولِ وَالْمُشَاهَدَةِ.



وَقَدْ دَهَشَ النَّاسُ لِرُؤْيَيْي، وَخَفَّ حَرَكَاتِي، وَأَنَا أَسِيرُ عَلَى الْمَائِدَةِ جِيئَةً وَذَهَابًا، وَأَجِيبُ عَن أَسْئَلَتِهِمْ بِقَدْرِ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَفْهَمَ مِنْ لُغَتِهِمْ. وَكَنتُ أُحْيِي النَّظَارَةَ — فِي إِحْتِرَامٍ وَأَدَبٍ — وَفَقَّ إِرْشَادَاتِ الْحَاضِنَةِ الصَّغِيرَةِ. وَقَدْ اتَّخَذْتُ مِنَ الدُّسْتَبَانِ الَّذِي أَعْطَنِيهِ الْحَاضِنَةُ — وَكَانَتْ تَضَعُهُ فِي إِصْبَعِهَا الْوُسْطَى حِينَ تَخِيطُ الْمَلَاسِ — قَدْحًا أَشْرَبُ فِيهِ الْمَاءَ. وَكَنتُ أَجْرُدُّ سَيْفِي وَأُظْهِرُ أَمَامَهُمْ كُلَّ مَا تَعَلَّمْتُهُ — فِي حَدَائِثِي — مِنْ ضُرُوبِ الْفُرُوسِيَّةِ. وَقَدْ أَعْطَنِي الْحَاضِنَةُ شَيْئًا مِنَ الْأَعْوَادِ لِأَتَّخِذَ مِنْهُ حِرَابًا أُمْتَلُ بِهَا دَوْرَ الْفَارِسِ الصَّغِيرِ. وَقَدْ صَعِدْتُ إِلَى الْمَائِدَةِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً، وَمَثَلْتُ —

في كلِّ مرَّةٍ — تلك الأذوار، وما انقضى النهارُ حتى ارتَمَيْتُ على الأرضِ لشدَّةِ ما لاقَيْتُ من الإعياءِ والمَشَقَّةِ.

وكان النَّظَّارَةُ شديدي الإعجابِ بِمَهَارَتِي؛ فلا يَخْرُجونَ حتى يُخبروا مَنْ يَعْرِفُونُ بِمَا رَأَوْهُ من عَرَائِبِ ومُدْهَشَاتٍ، وقد بلغَ زِحَامُ الجُمُهورِ أَشدَّهُ، ولم يُعَدَّ يطيقُ صَبْرًا على الانتظارِ، حتى هَمَّ — عدَّةَ مراتٍ — بِإفْتِحَامِ الأبوابِ، والدُّخولِ عَنوَةً.

ورأى السَّيِّدُ — في ذلك — وَسِيلَةً ناجحةً لِلكَسْبِ والعِنَى، فحَشِيَّ أن يُصِيبَنِي مَكْرُوهٌ، أو يَلْحَقَنِي شيءٌ من أذى بعضِ النَّظَّارَةِ الفُضولِيِّينَ، فَحَظَرَ عليهمُ الدُّنُو مَنِّي، وجعل الحَاضِنَةَ قَريبَةً من مكاني، حتى تمنعَ عني كلَّ أذى، وأجْلَسَ النَّظَّارَةَ على مسافةٍ بعيدَةٍ مِنِّي، حتى لا تنالني أيُّ يدٍ بِسُوءٍ.

على أن تلميذًا خبيثًا أبى عليه لُؤْمُهُ إِلَّا أن يَقْدَفَنِي بِجَوْرَةٍ صغيرةٍ، لا يقلُّ حجمُها عن حجمِ أكبرِ بطِيخَةٍ رأيتها. وقد صَوَّبَهَا الحَبيثُ إلى رَأْسِي، وأطلقها من يده بِقُوَّةٍ، ولكنها — لِحَسَنِ حَظِّي — قد أخطأتني ولو قد أصابت رَأْسِي لَحَطَمَتُهُ تَحْطِيمًا. وما ألقاها حتى غضبَ السَّيِّدُ والحَاضِنَةُ والنَّظَّارَةُ على ذلك التَّمليذِ الحَبيثِ، وعنفوه على فَعَلَتِهِ أَشدَّ تعنيفٍ، وطردوه من المكانِ.

ثم أعلن السَّيِّدُ أَنَّهُ سَيَسْتَأْنِفُ عَمَلَهُ في يَوْمِ السُّوقِ التَّالِي، وقد ارتَمَيْتُ على فِرَاشِي وأنا مُجْهَدٌ القُوَى، وقد بَحَّ صَوْتِي، بَعْدَ أن ظَلَلْتُ أُمَّلُّ وأتكلَّمُ ثمانِي ساعاتٍ كاملةً. ولما رَجَعَ السَّيِّدُ إلى بيتهِ وفَدَّ عليه جيرانُه — رجالًا ونساءً وأولادًا — ليتَحَقَّقُوا صدقَ ما سمعوه عَنِّي وكانت أنبائي قد ذاعتُ في كلِّ مكانٍ ورأى السَّيِّدُ وفُورَ ما يَجْنِيهِ مِنَ المَالِ — إذا تابَعَ عَرَضِي في الأسواقِ — فَعَهَدَ بِأعمالِهِ المَنْزِلِيَّةِ والزُّراعِيَّةِ إلى وكيلٍ أمينٍ، ثم ودَّعَ زَوْجَهُ — بعد أن أَعَدَّ كلَّ المَعَدَّاتِ لِسَفَرٍ طويلٍ — وسافرَ في السَّابِعِ عَشَرَ من أَغسُطُسَ عامِ ١٧٠٣ م. وبعد شَهْرَيْنِ وَصَلْنَا إلى قَصَبَةِ إمبراطوريَّةِ «برُبدُنْجاج»، وهي على بُعد ألفٍ وَحَمْسِمِائَةِ ميلٍ من بلده.

وقد رَكِبَ السَّيِّدُ جِوَادَهُ، وأرْدَفَ ابْنَتَهُ، فَحَمَلَتْنِي في عُلبَةٍ صغيرةٍ شَدَّتْها إلى حِزامِها، بعد أن بَطَّنَتْ داخلَها بِبِطَانَةٍ كَثِيفَةٍ مِنَ الجُوخِ، وقد عَزَمَ السَّيِّدُ على أن يَعْرِضَنِي في أسواقِ المَدُنِ والضَّواحيِ والقَرَى الشَّهيرةِ التي يَمُرُّ عليها في طريقه وكُنَّا نَقطَعُ في كلِّ يَوْمٍ مسافةً تَتَرَجَّحُ بين ثمانينَ ميلاً ومائةِ ميلٍ، وكانتِ الحَاضِنَةُ كثيرًا ما تشكُو إلى أبيها



إِسْرَاعَ الْجَوَادِ فِي سِيرِهِ، وَتَطَلُّبُ إِلَيْهِ التَّمَهُّلَ وَالْهَوَادَةَ، مُحَافَظَةً عَلَى رَاحَتِي، وَكَذَلِكَ كَانَتْ تُخْرِجُنِي مِنَ الْعَلْبَةِ — بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ — لِأَسْتَنْشِقَ الْهَوَاءَ، وَأَرَى الْبِلَادَ الَّتِي نَمُرُّ عَلَيْهَا، وَقَدْ عَبَرْنَا سِتَّةَ نَهْرِيَّاتٍ، كَانَتْ — عَلَى صِغَرِهَا — أَعْرَضَ وَأَعَمَّقَ مِنْ نَهْرِ النَّيْلِ، وَكَانَ أَضْيَقُ عَدِيرٍ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ أَكْثَرَ اتِّسَاعًا مِنْ نَهْرِ «التَّامِينِ». وَقَدْ قَضِينَا فِي سَفَرِنَا عِدَّةَ أَسَابِيعَ، وَمَرَرْنَا عَلَى ثَمَانِي عَشْرَةَ مَدِينَةً وَكَثِيرٍ مِنَ الْقُرَى وَالضَّوَاجِي، وَفِي الْيَوْمِ السَّادِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ أَكْتُوبَرَ وَصَلْنَا إِلَى قَصْبَةِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ، وَاسْمُهَا «أُمُّ الْقُرَى»، وَهَمْ يَنْعَتُونَهَا دَائِمًا بِأَنَّهَا «فَخْرُ بِلَادِ الْعَالَمِ».

وَمَا وَصَلْنَا إِلَى تِلْكَ الْقَصْبَةِ حَتَّى أَكْثَرَى السَّيِّدُ جَنَاحًا كَبِيرًا فِي أَحْسَنِ شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ، وَأَرْسَلَ دُعَاتِهِ يُدْعُونَ عَلَى النَّاسِ أَنْبَاءَ الْغَرَائِبِ وَالْمُدْهَشَاتِ الَّتِي سَأَفَاجِئُهُمْ بِهَا. وَكَانَ السَّيِّدُ يَعْزِضُنِي أَمَامَ الْجُمْهُورِ فِي فِنَاءٍ كَبِيرٍ، طَوَّلَهُ أَرْبَعُمِائَةَ قَدِيمٍ وَعَرَضَهُ ثَلَاثُمِائَةَ قَدِيمٍ، وَفِي وَسْطِهِ مَائِدَةٌ قُطْرُهَا سِتُّونَ قَدِيمًا، يَكْتَنِفُهَا سِيَاحٌ مَتِينٌ لِيَحُولَ بَيْنِي وَبَيْنَ السُّقُوطِ. وَكُنْتُ أُمْتَلُّ دَوْرِي — فِي كُلِّ يَوْمٍ — عَشْرَ مَرَّاتٍ، وَالْجُمْهُورُ شَدِيدُ الدَّهْشَةِ وَالْإِعْجَابِ بِي، وَكُنْتُ حِينئِذٍ قَدْ تَعَلَّمْتُ الْفَاطَا كَثِيرَةً مِنْ لُغَةِ هَذِهِ الْبِلَادِ، وَأَصْبَحْتُ قَادِرًا عَلَى الْكَلَامِ مَعَ أَهْلِهَا بِسَهُولَةٍ؛ لِأَنَّي كُنْتُ دَائِمَ الْإِنْتِبَاهِ وَالتَّلْقِي لِكُلِّ مَا يَطْرُقُ سَمْعِي مِنْ أَحَادِيثِهِمْ. وَكَانَتْ الْحَاضِنَةُ الصَّغِيرَةُ دَائِبَةً الْعِنَايَةَ بِي، فَلَا تَتْرَكُ فُرْصَةً فِي أَوْقَاتِ فَرَاعِي دُونَ أَنْ تَعَلِّمَنِي فِيهَا حُرُوفَ الْهَجَاءِ وَمَا إِلَيْهَا، حَتَّى أَصْبَحْتُ — بِفَضْلِ عِنَايَتِهَا وَتَعَهُّدِهَا — قَادِرًا عَلَى قِرَاءَةِ كُتُبِهِمُ الْأَوَّلِيَّةِ وَفَهْمِهَا. وَكَانَتْ تُدْرِّسُ لِي فِي الْبَيْتِ وَفِي الْفُنْدُقِ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ نَحُلُ فِيهِ، وَتَعَلِّمَنِي الْقِرَاءَةَ فِي كُتَيْبٍ صَغِيرٍ يَزِيدُ حَجْمَهُ عَلَى حَجْمِ الْمُصَوِّرِ الْجُغْرَافِيِّ الْكَبِيرِ الَّذِي يَتَدَاوَلُهُ التَّلَامِذَةُ فِي مَدَارِسِنَا، وَتَبْدَلُ قُصَارَى جُهْدِهَا فِي تَعْلِيمِي الْحُرُوفَ وَتَرْكِيبَ الْكَلِمَاتِ، مُتَدَرِّجَةً مِنْهَا إِلَى الْجَمَلِ الْقُصِيرَةِ، فَالطَوِيلَةِ، كَمَا كَانَتْ تَفْهَمُنِي مَعَانِي مَا أَقْرَأُ، حَتَّى وَصَلْتُ — فِي زَمَنِ بَسِيرٍ — إِلَى دَرَجَةِ جَدِيرَةٍ بِالْغِبْطَةِ وَالْإِعْجَابِ.

## الفصل الثالث

### (١) في القصرِ الملكيِّ

شَدَّ ما أَجْهَدَنِي ما كابدْتُهُ من جُهودِ مُضْنِيَّةٍ، ومَتاعِبَ شَدِيدَةٍ، فقد كُنْتُ دائِبَ العَمَلِ في تَمثيلِ أدْوارِي — كلَّ يَوْمٍ — حتَّى ساءَتْ صِحَّتِي، ودَبَّ إِلَيَّ دَيْبُ الضَّعْفِ، وهُزِلَ جِسمِي. وكان السَّيِّدُ شَرِّها طَماعاً يُغْرِيه الكَسْبُ، ويُنْسيه ما يَجْنِيهِ مِنَ الأَرْباحِ الطَّائِلَةِ كلَّ معْنَى من معانِي العَطْفِ والوَاجِبِ الإنْسانِيِّ، ولقد فَقدْتُ شَهِيَّةَ الأَكْلِ فَقَداناً تامًّا، وأصبحتُ جِلْدًا على عَظْمٍ. ورأى السَّيِّدُ أَنني مُشْرِفٌ على التَّلَفِ، فجلسَ يُفَكِّرُ في وَسيلةٍ يَسْلُكُها لِلانْتِفاعِ بي من أَقربِ طريقٍ قَبْلَ أن أَموتَ.

وإنه لَغَارِقٌ في تَفَكُّرِهِ إذ جاءه أَحَدُ الأَمراءِ يَسْتَدْعِيهِ لِلذَّهابِ معي، من قَوْرِهِ، إلى القِصرِ المَلِكِيِّ لِتَسْلِيَةِ المَلِكَةِ وحاشِيَتِها. وكانت أنْبائِي قد ذاعَتْ في أَرْجاءِ المَمْلَكَةِ كُلِّها، وقد رَأَيتُني بَعْضُ سَيِّداتِ الحاشِيَةِ فَأَعْجَبَنِي بي إعْجاباً شَدِيداً، وقَصَصَنَ على جِلالَةِ المَلِكَةِ ما رَأَيْتُهُ مِنَ المَذْهَباتِ، ووصَفَنَ لها ضالَّةً جِسمِي، وحُسْنَ أدْبي، ودِمائَةَ خُلُقِي، وذِكاؤِي النَّادِرَ؛ فلم تُطِقْ جِلالَتُها صَبْرًا، وأرسلَتْ — من قَوْرِها — تَسْتَدْعِينِي إِلَيْها لِتَتَحَقَّقَ صِدْقَ ما سَمِعْتُهُ عَنِي من أنْباءٍ مُعْجِبَةٍ، وقد ابْتَهَجَتْ جِلالَةُ المَلِكَةِ وحاشِيَتُها ابْتِهاجًا عَظِيمًا، حينَ تَحَقَّقَتْ صِدْقَ ما حَدَّثَها بِهِ، وأظْهَرَتْ عَطْفَها عَلَيَّ وإعْجابَها بي، فَجَنَوْتُ على رُكْبَتِي ضارِعًا إِلَيْها أن تُشَرِّفَنِي بِلِئَمِّ قَدَمِها المَلِكِيَّةِ؛ فَقدِمَتْ إِلَيَّ خِنْصَرِها — متَلَطِّفَةً بِاسِمْه — فَأَمَسَكْتُها بَيْنَ يَدَيَّ، وَلَنَمْتُ بِنانِها شاكِرًا.



وقد وَجَّهْتُ إِلَيَّ أَسْئَلَةً عَامَّةً عَنْ بِلَادِي، فَأَجَبْتُ عَنْهَا مُوجِزَةً وَاضِحَةً عَلَى قَدْرِ مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُعَبِّرَ بِلُغَتِهَا، ثُمَّ قَالَتْ لِي مَبْتَسِمَةً: «أَيُّسْرُكَ أَنْ تَعِيشَ مَعَنَا فِي هَذَا الْقَصْرِ؟» فَاثْنَيْتُ أَمَامَهَا شَاكِرًا، وَأَجَبْتُهَا ضَارِعًا: «لَسْتُ — يَا مَوْلَاتِي — إِلَّا عَبْدًا رَقِيقًا لِهَذَا السَّيِّدِ، فَهُوَ مَالِكُ رِقِّي، يَتَصَرَّفُ فِي أَمْرِي كَيْفَ يَشَاءُ، أَمَّا أَنَا، فَلَوْ كَانَ أَمْرِي بِيَدِي لَرَأَيْتُ السَّعَادَةَ كُلَّهَا فِي أَنْ أَهَبَّ جَلَالَتِكَ الْمُلُوكِيَّةَ حَيَاتِي، وَأَنْ أَقْصَرَ خِدْمَتِي عَلَى الْقَصْرِ الْكَرِيمِ!»

فالتفتت إلى السيد تسألته: «هل تقبل أن تبيعني؟»

ولم يكن أشهى إلى نفسه من هذا؛ فقد دخل في روعه أنني هالكٌ — قبل أن أتمَّ الشهرَ — فرأى الفرصة سانحةً للكسب، وعرض على جلالتها أن تشتريني بألف دينار، فنقدته الثمن من فورها، فقلت لجلالتها ضارعًا: «ما أجدر مولاتي أن تُضيفَ — إلى هذا الفضل الذي طوّقت به جيدَ عيْدها — فضلًا آخرَ، فتقبلَ صديقتي الحاضنة الصغيرة — التي عطفت عليَّ وعيّبت بأمرِي — خادمةً لجلالتها، لتكونَ رفيقةً لي؛ فقد أقنعتني الأيامُ بأنها نعم المرشدة الأمينة.»

فأجابتنِي جلالَةُ الْمَلِكَةِ إِلَى طَلْبَتِي فِي الْحَالِ، وَفَرِحَ الزَّارِعُ بِهَذَا الْفَوْزِ، وَامْتَلَأَ قَلْبُهُ سُورًا وَغِبْطَةً؛ إِذْ أَصْبَحَتْ ابْنَتُهُ فِي حَاشِيَةِ الْمَلِكَةِ، كَمَا تَطَلَّقَتْ أُسَارِيرُ الْحَاضِنَةِ بِشْرًا وَسُرورًا.

ثم ذهب السيد إلى سبيله، بعد أن حيانني مبتسمًا، وقال لي: «أستودعك الله، وأهنيك بهذا الفوز العظيم، وأتمنى لك السعادة التامة!» فرددت عليه تحيته — في امتعاضٍ وفتورٍ — وشكرت له أمانته لي.

## (٢) خُطْبَةُ «جَلْفَرِ»

ولم يُخَفَ على جلالَةِ الْمَلِكَةِ ما بدا على أساريري من أماراتِ الإمتعاضِ والفتورِ — حينَ حَيَّيْتُ ذلكَ السيدَ — فسألْتَنِي عن السَّرِّ في ذلكَ؛ فلم أكتُمها شيئاً من حقيقةِ ما حدثَ، وقصصْتُ عليها قصَّتي كُلِّها، ثم حَتَمْتُها بقولي: «إِنَّ كُلَّ ما أشكُرُه — لهذا السيدِ — أنه تَجَاوَزَ عن قتلِ ذلكَ الحيوانِ الصَّغيرِ البَريِّ الذي رآه مُصادفَةً في حَقْلِهِ؛ فقد كان في قُدْرَتِهِ — حينئذٍ — أن يسَحَقَنِي بِقَدَمِهِ سَحَقًا، وإنِّي لن أنسى لَهُ هذا الصَّنِيعَ المشكورَ. وأحسبُني قد رَدَدْتُهُ إليه مضاعفًا؛ فقد جَنَى بي أرباحًا طائلةً، لم يكنْ يَحْلُمُ بها طولَ عمرِهِ، وكانت خاتِمَتِي معه أنْ باعَني لِجَلالَتِكَ بألفِ دينارٍ. على أنِّي أنقِمُ مِنْهُ جَسَعَهُ وَجَرِيَهُ وراءَ المالِ، دونَ أنْ تأخذهُ في أمري رحمةً أو شفقةً؛ فقد أفسدَ صِحَّتِي، وأنكرَ صُحْبَتِي في سبيلِ المالِ، وكاد يَهْلِكُنِي لولا لطفُ اللهِ بي، إذ قَيَّضَ لي جلالَتِكَ، فأنقَذتَ حياتي بعد أنْ أشرفْتُ على التَّلَفِ، ولولا أنه كان شديدَ الثَّقَةِ بأنْ حَيَّنِي وَشَيْكُ، لما باعَني لِجَلالَتِكَ بهذا الثَّمَنِ القليلِ ....

على أنِّي لن أخشى شيئاً بعدَ اليومِ، فَحَسْبِي أنِّي أصبحتُ في كَنَفِ مَلِكَةٍ عظيمةٍ مثلكَ، تُعَدُّ — بِحَقِّ — آيَةَ الكَرَمِ، وَبَهْجَةَ الدُّنْيَا، وَفَخْرَ العالَمِ. وقد بدأتُ أُحسُّ — منذُ هذه اللَّحظةِ — أنْ زَمَنَ النُّحْسِ والشَّقَاءِ قد ولى، وأَعقَبَهُ زَمَنُ السَّعَادَةِ والرِّخاءِ. وإنِّي لأشعُرُ أنْ قَوايَ تَتَجَدَّدُ بِفَضْلِ هذه الرِّعايَةِ السَّامِيَةِ.»

ولقد أَلْفَيْتُ هذه الخُطْبَةَ أمامَ جلالَتِها — وأنا واثِقٌ من أنِّي وَقَعْتُ في كثيرٍ من العَلَطِ النُّحُويِّ، وَالخَطَأِ اللُّغويِّ — ولكنَّ جلالَتِها أدركتُ حَدائِةَ عَهْدِي بِتلكَ اللُّغَةِ، فتجاوَزتْ عن كُلِّ ما وَقَعْتُ فيه من هَفَواتٍ، وَأَعجِبَتْ بِذكائِي، وَدهِشَتْ لما سَمَعَتْهُ مِنِّي، ولم يكنْ يَدُورُ بِحَلَدِها أنْ تجدَ هذا العقلَ والذكاءَ في مثلِ هذا الحيوانِ الصَّغيرِ الذي يُخاطِبُها.

## (٣) بين يَدَي الْمَلِكِ

ومضتْ بي — من قَورِها — إلى جَناحِ جلالَةِ الْمَلِكِ وكان قد عادَ إلى القَصرِ. وما استَقَرَّ في حُجْرَتِهِ الخاصَّةِ حتى جاءتهُ الْمَلِكَةُ، فحَيَّيْتُهُ — متلطفَةً — فردَّ عليها النَّحِيَةَ بِابْتِسامٍ،

وكان مَلِكُ هذه البلادِ مِثْلًا لِلجِدِّ وَالْحَزْمِ وَالنَّشَاطِ وَمَا أَلْقَى عَلَيَّ نَظْرَةً عَاجِلَةً حَتَّى قَالَ لِلْمَلِكَةِ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ رَأَى وَجْهِي: «مَاذَا أَعْجَبَكَ مِنْ هَذِهِ الْحَشْرَةِ؟»



فَوَضَعْتَنِي تِلْكَ الْمَلِكَةُ الْحَصِيْفَةَ عَلَى مِخْبَرَةِ جَلَالَتِهِ، وَطَلَبْتُ إِلَيَّْ أَنْ أُجِيبَ جَلَالََةَ الْمَلِكِ عَنْ سُؤَالِهِ، وَأُخْبِرَهُ بِاسْمِي.

فَأَوْجَزْتُ لِجَلَالَتِهِ خَبْرِي، وَلَمْ تَسْتَطِعِ الْحَاضِنَةُ أَنْ تَبْقَى بَعِيدَةً عَنِّي؛ فَاسْتَأْذَنْتُ فِي الدُّخُولِ، ثُمَّ قَصَّصْتُ عَلَى جَلَالَتِهِ كَيْفَ وَجَدَنِي أَبُوهَا فِي حَقْلِهِ، وَسَرَدْتُ قِصَّتِي كُلَّهَا، وَكَانَ ذَلِكَ الْمَلِكُ أَعْلَمَ رَجُلٍ رَأَيْتُهُ فِي مَمْلَكَتِهِ، وَقَدْ تَوَفَّرَ عَلَى دَرَسِ الْفَلَسَفَةِ وَتَخَصَّصَ لِعُلُومِ الرِّيَاضِيَّاتِ فَلَمَّا رَأَى وَجْهِي وَمِشِيَّتِي، حُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّنِي رُبَّمَا كُنْتُ آلَةً صِنَاعِيَّةً كَالآلَةِ الَّتِي تُدِيرُ بِنَفْسِهَا سَفُودَ الشُّوَاءِ، أَوْ كَالسَّاعَةِ الَّتِي اسْتَطَاعَ أَنْ يَخْتَرِعَهَا فَنِّيٌّ مَاهِرٌ، وَلَكِنَّهُ بَعْدَ أَنْ حَادَثْنِي وَتَبَيَّنَ نُبْرَاتِ صَوْتِي، وَحَسَّنَ جَوَابِي، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَكْتُمَ دَهْشَتَهُ وَإِعْجَابَهُ.

(٤) أَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ

فَأَمَرَ الْمَلِكُ — من فوره — باستدعاء ثلاثة من أساطين العلماء، كانوا — حينئذٍ — ضيوفاً في القصر الملكي، وكانوا يقضون فيه أسبوعاً من كل عام، تبعاً لتقاليد هذه البلاد. وبعد أن أنعموا النظر وأمعنوا الفكر، وأطالوا التأمل والفحص، تباينت آراؤهم في أمري. ثم أجمعوا رأيهم — بعد مناقشة طويلة — على أنني فلتة من فلتات الطبيعة، لأنني لم أخلق على حسب القوانين الطبيعية المألوفة. ولأن الطبيعة قد سلبتني — فيما زعموا — كل مؤهلات الحياة وأدوات الدفاع عن نفسي، وحرمتني القوة والنشاط؛ فليس في قدرتي أن أتسلق شجرة من أشجارهم، أو أحفر الأرض، فأخذ فيها جحراً أوي إليه كما تفعل الأراب مثلاً، وقد فحصوا عن أسناني فحصاً دقيقاً، فاقنعوا بأني حيوان مفترس من أكلة اللحوم، وذهب أحدهم إلى أنني جنين لم اكتمل في بطن أمي، ولكن رفيقي أنكر عليه هذا الزعم، لأن أعضائي كلها كاملة في نوعها — برغم ضآلتها — ولأنني قد عشت عدة سنين حتى اكتملت رجولتي والتحيت، وقد استطاعوا أن يروا شعر لحيتي بمجهر لِدَقَّتِهِ، ولم يستطيعوا أن يعتبروني قزماً؛ لأن نديم الملكة — وهو أصغر قزم وجد في تلك المملكة — كان يربو طولُه على ثلاثين قدماً.



وطالت مناقشتهم، واشتد جدلهم، ثم أطبقوا — بعد ذلك — على أنني لست إلا مخلوقاً شاذاً من النوع الذي يُطلق عليه الفلاسفة اسم «مُدَاعِبَاتِ الطَّبِيعَةِ» أو «فَلْتَاتِ الزَّمَنِ»، وهو تعبيرٌ يلجأ إليه أساتيد الفلسفة الحديثة الذين يعجزهم تفهّم أسرار الكون،

وَدَقَائِقِ الْعَيْبِ، وَغَرَائِبِ الطَّبِيعَةِ؛ فَلَا يَجِدُونَ وَسِيلَةَ لِحَلِّ كُلِّ غَامِضٍ إِلَّا إِذَا التَّجَنُّوا إِلَى هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ السَّهْلَةِ!

وَمَا انْتَهَوْا مِنْ قَرَارِهِمْ هَذَا، حَتَّى التَّفَّتْ إِلَى الْمَلِكِ، وَقَلَّتْ لَجَلَالَتِهِ: «إِنَّنِّي آتٍ مِنْ بِلَادِ تَحْوِي عِدَّةَ مَلَائِينَ مِنَ الْأُنَاسِيِّ — ذُكُورًا وَإِنَاثًا — فِي مِثْلِ حَجَمِي، وَإِنَّ أَشْجَارَ تِلْكَ الْبِلَادِ وَحَيَوَانَهَا وَنَبَاتَهَا وَمَسَاكِنَهَا تَنَاسَبُ أَحْجَامَنَا الصَّغِيرَةَ. وَبِمَّةٍ تَتَوَافَرُ لِي أَسْبَابُ الدَّفَاعِ عَنِ نَفْسِي، وَيَسْهُلُ عَلَيَّ أَنْ أَحْصَلَ عَلَى قُوَّتِي وَحَاجَاتِي، كَمَا تَحْصُلُونَ عَلَيْهِ فِي بِلَادِكُمْ الْمُنَاسِبَةَ لِأَحْجَامِكُمُ الْهَائِلَةَ.»

وَمَا سَمِعَ الْفَلَاسِفَةُ هَذَا الْجَوَابَ، حَتَّى عَلَتْ شِفَاهَهُمْ ابْتِسَامَاتُ السُّخْرِيَّةِ وَالْأَزْدِرَاءِ، وَقَالُوا لِي مُتَهَكِّمِينَ: «لَقَدْ أَحْسَنَ الزَّرَّارُ تَلْقِينَكَ هَذِهِ الدَّرُوسَ!»

وَكَانَ الْمَلِكُ — كَمَا قَلْتُ — ذَكِيَّ الْقَلْبِ، وَاسِعَ الْإِطْلَاعِ؛ فَلَمْ يَسْتَبِعِدْ مَا قُلْتُهُ، فَصَرَفَ عُلَمَاءَهُ، وَأَمَرَ بِاسْتِدْعَاءِ الزَّرَّارِ — وَلَمْ يَكُنْ قَدْ غَادَرَ الْمَدِينَةَ لِحُسْنِ الْحِظِّ — وَسَأَلَهُ جَلَالَتُهُ عَلَى انْفِرَادٍ، ثُمَّ وَاجَهَهُ بِي وَبِابْنَتِهِ الصَّغِيرَةِ؛ فَظَهَرَ لَهُ صِدْقُ مَا قُلْتُهُ لَهُ، فَصَرَفَ الزَّرَّارَ، وَأَوْصَى بِي الْحَاضِنَةَ خَيْرًا، وَتَرَكَ لَهَا الْعِنَايَةَ بِأَمْرِي، بَعْدَ أَنْ رَأَى عَطْفَهَا عَلَيَّ وَتَعَلَّقَهَا بِي.

## (٥) عِنَايَةُ الْمَلِكَةِ

وَقَدْ اسْتَدَعَتِ الْمَلِكَةَ نَجَّارَهَا الْخَاصَّ — وَكَانَ مَشْهُورًا بِصُنْعِ دَقَائِقِ النَّجَارَةِ — وَأَمَرَتْهُ بِعَمَلِ عُلْبَةٍ صَغِيرَةٍ تَصْلُحُ مَكَانًا لِنَوْمِي وَفَقَّ النَّمُودَجِ الَّذِي قَدَّمْتُهُ أَنَا وَالْحَاضِنَةُ. وَكَانَ نَجَّارًا مَاهِرًا دَقِيقًا ذَكِيًّا؛ فَلَمْ تَمُرَّ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَسَابِيعَ حَتَّى أُنِّمَ صُنْعَ الْعُلْبَةِ. وَكَانَتْ مِسَاحَتُهَا سِتَّ عَشْرَةَ قَدَمًا مُرَبَّعَةً، وَارْتِفَاعُهَا اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قَدَمًا، وَلِهَا بَابٌ وَنَوَافِذٌ، وَهِيَ تَحْتَوِي حُجْرَتَيْنِ، وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ جَاءُونِي بِكُرْسِيِّينِ صَغِيرَيْنِ مِنْ مَادَّةٍ تُشْبِهُ الْعَاجَ، وَأَحْضَرُوا إِلَيَّ مَائِدَتَيْنِ، وَخِزَانَةَ مَلَاسٍ صَنَعَهَا عَامِلٌ مُتَخَصِّصٌ لِصُنْعِ دَقَائِقِ الطَّرْفِ الْفَنِّيَّةِ. وَأَعَدَّتْ لِي جَلَالَةُ الْمَلِكَةِ أَرْقَ الْأَنْثَوَابِ الْحَرِيرِيَّةِ، لِأَخْتَارَ مِنْهَا مَا يَلْبَسُنِي.

وَكَانَتْ جَلَالَتُهَا تَأْتَسُّ إِلَيَّ، وَتَطْرَبُ لِحَدِيثِي، وَلَا تَصْبِرُ عَلَى مُفَارَقَتِي، وَلَا تَأْكُلُ إِلَّا إِذَا أَكَلْتُ بِجَانِبِهَا. وَقَدْ أَعَدَّتْ لِي مَائِدَةً صَغِيرَةً أَضْعُفًا عَلَى الْمَائِدَةِ الْكَبِيرَةِ، وَأَحْضَرَتْ إِلَيَّ

جانِبِهَا كُرْسِيًّا صَغِيرًا أَجْلَسُ عَلَيْهِ. وَكَانَتْ الْحَاضِنَةُ تَجْلِسُ دَائِمًا بِالْقَرْبِ مِنِّي لِتَلْبِيَةِ كُلِّ مَا أَطْلُبُ، وَلَا تَكَادُ تَفْتُرُ عَنِ الْعِنَايَةِ بِي لِحَظَّةٍ وَاحِدَةً.

## (٦) جِوَارُ الْمَلِكِ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ كَانَ الْمَلِكُ يَتَغَدَّى مَعَنَا، فَظَلَّ يُحَادِثُنِي، وَهُوَ مُعْجَبٌ بِحَدِيثِي، وَقَدْ سَأَلَنِي عَنْ عَادَاتِ بِلَادِي، وَأَخْلَاقِ أَهْلِهَا، وَدِينِهِمْ وَقَوَانِينِهِمْ، وَحُكُومَتِهِمْ وَأَدَابِ لُغَتِهِمْ؛ فَأَجَبْتُهُ عَنْ كُلِّ مَا سَأَلَ بِقَدْرٍ مَا سَاعَفْتَنِي اللُّغَةُ.

وَكَانَ الْمَلِكُ طَلَعَةً، دَائِبَ الْبَحْثِ، دَقِيقَ الْمُلَاحَظَةِ، قَوِيَّ الْحُجَّةِ؛ فَظَلَّ يَفْكَرُ فِي شَأْنِي وَأَقْوَالِي مَلِيًّا، وَقَدْ اشْتَدَّ عَجْبُهُ حِينَ عَلِمَ أَنَّ فِي بِلَادِنَا أَحْزَابًا مُتَنَافِرَةً مُتَنَاجِرَةً، وَأَنَّ لِكُلِّ حِزْبٍ مُؤَيَّدِينَ وَمَعَارِضِينَ، فَالْتَفَتَ الْمَلِكُ إِلَى وَزِيرِهِ، وَكَانَ واقِفًا خَلْفَهُ وَفِي يَدِهِ عَصَا بَيْضَاءُ، كَأَنَّهَا — لِطُولِهَا — سَارِيَّةٌ سَفِينَةٌ شِرَاعِيَّةٌ كَبِيرَةٌ، وَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: «أَلَيْسَ مِنَ الْمَوْلِمِ الْمُخْزِي أَنْ تَكُونَ الْعِظَمَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ تَافِهَةً إِلَى هَذَا الْحَدِّ؟ وَأَيُّ قِيَمَةٍ لِلْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِذَا شَارَكَتَهُ تِلْكَ الْحَشَرَاتُ الْحَقِيرَةُ فِي كُلِّ خِصَائِصِهِ وَمَزَايَاهِ؟ وَأَيُّ فَضْلٍ لَنَا مَا دَامَتْ هَذِهِ الْحَشَرَاتُ تُمَاتِلُنَا فِي كُلِّ شَيْءٍ: لَهُمْ أَطْمَاعٌ وَأَحْزَابٌ، وَمِيزَاتٌ وَزِينَاتٌ، وَأَفْرَاحٌ وَأَتْرَاحٌ، يَصْنَعُونَ مِنْ فَضَلَاتِ الْخَرَقِ أَثْوَابًا يَرْتَدُّونَهَا، وَيَأْوُونَ إِلَى ثُقُوبٍ يُسْمُونَهَا مَنَازِلَ وَقُصُورًا، وَيَتَّخِذُونَ لَهُمْ أَتْبَاعًا وَحَدَمًا، وَيُلْقِبُونَ أَنْفُسَهُمْ بِشَتَّى الْأَلْقَابِ وَالنُّعُوتِ، وَيَكُونُ لَهُمْ — كَمَا لَنَا — فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَرَابٌ وَمِشَاغِلٌ وَأَمَانِيٌّ، وَيُحِبُّونَ وَيَكْرَهُونَ، وَيَلْجِئُونَ إِلَى ضُرُوبِ الْخِدَاعِ وَالْمَكْرِ وَالْخُصُومَةِ، فَلَا نَمْتَازُ عَنْهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ مَزَايَا وَنِقَائِصِنَا عَلَى السَّوَاءِ!»

هَكَذَا شَاءَ جَلَالَةُ الْمَلِكِ أَنْ يُحَقِّرَ أَبْنَاءَ جَنْسِي، وَأَنْ يُزِيرِي بِفُنُونِهِمْ وَأَدَابِهِمْ وَقَلَسَفَتِهِمْ، وَأَنْ تَدْفَعَهُ فِلْسَفَتُهُ إِلَى الْغَضِّ مِنْهُمْ، وَأَمْتَهَانِ شَأْنِهِمْ لِضَالَةِ أَجْسَامِهِمْ!

## (٧) الْقَرَمُ الْخَبِيثُ

صَفَا لِي الزَّمَنُ، وَلَمْ يُعَكِّرْ عَلَيَّ هَذَا الصِّفَاءَ إِلَّا قَرَمٌ خَبِيثٌ قَدْ اخْتَارَتْهُ الْمَلِكَةُ لِمُنَادِمَتِهَا، وَهُوَ أَصْغَرُ قَامَةٍ مِنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ، وَمَا رَأَى ذَلِكَ الْقَرَمُ الْخَبِيثُ أَنَّ فِي الدُّنْيَا إِنْسَانًا أَضَالَ مِنْهُ، حَتَّى تَمَلَّكَه الرَّهْوُ وَالْعُرُورُ وَالْخَيْلَاءُ؛ فَظَلَّ يَعْثَبُ بِي — كُلَّمَا رَأَنِي —



ولا يتركُ فُرْصَةً يَلْقَانِي فِيهَا دون أن يتهكّم بي، ويسخر مني، حتى عكّر عليّ كلَّ صَفْوٍ، ولم أكنُ أجدُ وسيلةً إلى الانتقام منه إلا أن أدعوه بلقب «الشَّقِيقِ»!  
وما أنس لا أنس يوماً مشئوماً مرّ بي مع هذا القزم الخبيث ونحن نتعدّى، ولم أكن أفكرُ في شيءٍ حينئذٍ، فرأى ذلك القزم أن الفرصة سانحةٌ للعبيث بي؛ فأمسكني من وسطي، ورفعني بيده، ثم ألقى بي في صحفةٍ مملوءةٍ لبنًا، وفرّ هاربًا؛ فغرقتُ في اللبنِ إلى أذنيّ، ولولا أنني أحسنُ السباحة لغرقتُ فيها وكنتُ من الهالكين. وكانت الحاضنة الصغيرة حينئذٍ في آخر القاعة — لحسن حظي — فأسرعت إليّ وأنقذتني من الغرق، وما علمت الملكة بهذا الحادث المفزع حتى ذهلت، وامتلات نفسها بالغضب، وأرسلت — من فورها — تستدعي ذلك القزم، فلما حضر أمرت بضربه بالسياط؛ فظلوا يضربونه ضربًا موجعًا، حتى شفي غليلي منه، وأدركت — بذلك الإيذاء — ثأري الذي كنت عاجزًا عن الأخذ به!

### (٨) فِي أَنْبُوبِ عَظْمَةٍ

على أن هذا الحادث المشؤوم — حادث الغرق — قد انتهى لحسن حظي بسلام، فلم أخسر فيه إلا ثوبي الجديد.  
وقد طردت الملكة هذا القزم الشرير من خدمتها، وتركته لإحدى وصيفاتها؛ فاسترحت من مضايقته وخبيثه منذ ذلك اليوم.  
ولم تكن هذه أول مرة أساء إليّ فيها ذلك القزم، فقد طالما ضايقني بإساءته المتكررة، ولست أنسى ما فعله ذات يوم، إذ تربص بي حتى انتهى الملك من غدائه، ثم غافلني ذلك الخبيث وأمسك بي، فضم ساقَيَّ بإصبعيه، وأدخلني في أنبوب عظمة — بعد أن استلّ نخاعها — فغصت فيها إلى رقبتَي.  
ثم وضع تلك العظمة على المائدة وذهب إلى سبيله، ولبثت في ذلك الأنبوب بضع دقائق — وأنا في أحرج مازق — وخرجت من حقارتي، فلم أشأ أن أصيح حتى لا أنبه من في البيت إلى مكاني المزري، وقد كان من حسن حظي أن الملوك لا يأكلون طعامهم وهو ساخن شديد الحرارة؛ فلم تحترق ساقي.



وما فَطَنَ الْحَاضِرُونَ إِلَى مَكَانِي حَتَّى أَعْرِقُوا فِي الضَّيِّكِ، ثُمَّ أَخْرَجُونِي مِنْ أَنْبُوبِ  
تلك الْعُظْمَةِ دُونَ أَنْ يَمَسَّنِي سُوءٌ، وَقَدْ هَمُّوا بِمُعَاقِبَةِ ذَلِكَ الْقَرْمِ عَلَى إِسَاءَتِهِ، فَتَشَفَّعْتُ  
فِيهِ — إِبْقَاءً عَلَيْهِ، وَاسْتِصْفَاءً لِنَفْسِهِ — حَتَّى عَفَوْا عَنْهُ.

### (٩) مُكَافَحَةُ الْحَشْرَاتِ

وكانتِ الْمَلِكَةُ — فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ — تَهْرَأُ بِي، وَتَضْحَكُ مِنْ قَالِبِي، وَتَسْخَرُ مِنْ  
جُبْنِي، وَكَثِيرًا مَا سَأَلْتَنِي مُتَعَجِّبَةً: «تَرَى هَلْ يُمَاتُكَ أَوْلَادُكَ جِدَّتَكَ فِي خَوْفِكَ وَجُبْنِكَ؟ وَهَلْ  
يَنْزِعُجُونَ مِنْ طِينِ الذُّبَابِ، وَلَدَغَاتِهِ الْخَفِيفَةِ كَمَا تَنْزِعُجُ أَنْتِ؟»  
وَلَا أَكْتُمُ الْقَارِئُ أَنَّ ذُبَابَ هَذِهِ الْبِلَادِ مَا كَانَ يَدْعُنِي لِحَظَّةٍ فِي رَاحَةٍ وَاطْمِئْنَانٍ، فَهُوَ  
— لِسُوءِ حَظِّي — فِي حَجْمِ الْقُبْرَةِ فِي بِلَادِنَا، وَكَانَ يَتَهَافَتُ عَلَى طَعَامِي، وَيُفْزِعُنِي طِينَتَهُ،  
فَلَا يَهْنَأُ لِي طَعَامٌ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ. وَرُبَّمَا لَدْعُنِي فِي أَنْفِي لَدَعَةً مُوجِعَةً، وَكَانَتْ لَهُ رَاحَةٌ  
كِرِيهَةٌ، فَكَانَتْ أَحْسُ رَعَشَةَ خَوْفٍ وَفَزَعٍ كَلِمَا اقْتَرَبَتْ مِنِّي تِلْكَ الْحَشْرَاتُ الْمُؤْذِيَةُ.



وكأنما فهِمَ ذلكَ الْقَزَمُ الْخَبِيثُ خَوْفِي مِنْ تِلْكَ الْحَشَرَاتِ، فَكَانَ يَحْلُو لَهُ أَنْ يَنْتَهَرَ كُلَّ فُرْصَةٍ سَانِحَةٍ، لِيُخَيِّفَنِي بِهَا، وَيُضْحِكَ الْأَمِيرَاتِ مِنِّي؛ فَيَمْلَأُ قَبْضَةَ يَدِهِ بِجُمْلَةٍ مِنَ الذُّبَابِ، ثُمَّ يُطَلِّقُهَا عَلَيَّ.

ولم يَكُنْ لِي مِنْ حِيلَةٍ فِي دَفْعِ هَذَا الْبَلَاءِ إِلَّا أَنْ أَلْجَأُ إِلَى مُدَيَّتِي، فَأُحَارِبُ ذَلِكَ الذُّبَابَ الْكَبِيرَ، وَأَقْطَعُ جِسْمَهُ وَأَجْبَحْتُهُ إِزْبًا إِزْبًا!

وكانت الأميرات يُعْجَبْنَ بِهذه اللياقة التي امتازت بها في صيد الحشرات. ولست أنسى ما حدث لي — ذا صباح — فقد وضعت الحاضنة عُلبتي على النافذة — وأنا في داخلها — لأستنشق الهواء النقي، وما فتحت إحدى نافذتي وجلست إلى مائدتي لأكل فطوري — وكان قطعة من الفطير — حتى أقبلت اليعاسيب والزنابير، ودخلت حجرتي، وملأت أنحاءها بطنينها المفزع، وظلت تتهافت على طعامي وتتهبه انتهاباً، وطار بعضها حول رأسي، فتشجعت، وقمت أطاردُها في الهواء، فقتلت منها أربعة، وهربت بقيتها، فلما انتصرت عليها أغلقت النافذة.

### الفصل الثالث

وقد كان اليَعْسُوبُ في حَجْمِ الحَمَلِ، وكان طولُ حُمَّتِهِ اللّاسِعَةِ إصْبَعًا، وقد احتَقَظْتُ ببعضها ليكونَ عِنْدِي أَثَرًا من ذِكْرِيَاتِ هذه البِلَادِ.



## الفصل الرابع

### (١) برُيدُنْجَا

لَعَلَّ القَارِيَّ قَدِ اشْتَقَّ إِلَى تَعْرِفِ هَذِهِ المَمْلَكَةِ وَأَوْصَافِهَا، كَمَا عَرَفَ — مِنْ قَبْلُ —  
أَوْصَافَ إِمْبْرَاطُورِيَّةِ «لِيلِيُوت». وَلَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَصِفَ هَذِهِ المَمْلَكَةَ الفَسِيحَةَ الأَرْجَاءَ،  
المُتْرَامِيَّةَ الأَطْرَافِ، وَصَفًا مُسَهَّبًا، فَلأَجْتزِي بِوَصْفِهَا وَصَفًا عَاجِلًا، عَلَى قَدْرِ مَا أَعْرِفُهُ  
مِنْهَا، وَلَا أَكْتُمُ القَارِيَّ أَنَّنِي أَحْبَبْتُ هَذِهِ البِلَادَ، وَفُتِنْتُ بِهَا أَشَدَّ الفِتْنَةِ.



تَقَعُ هَذِهِ المَمْلَكَةُ فِي رُقْعَةٍ فَسِيحَةٍ مِنَ الكُرَّةِ الأَرْضِيَّةِ، طُولُهَا ثَلَاثَةُ آفَافِ مِيلٍ،  
وَعَرْضُهَا أَلْفَانِ وَخَمْسِمِائَةِ مِيلٍ. وَلَسْتُ أَشْكُ فِي أَنَّ عُلَمَاءَ الجُغْرَافِيَّةِ وَاهْمُونَ إِذْ يُقَرَّرُونَ  
— جَازِمِينَ — أَنَّ لَيْسَ بَيْنَ «اليَابَانِ» وَ«كَلْفُورُنِيَا» إِلَّا بَحْرٌ. وَلَقَدْ طَالَمَا دَارَ بِخَلْدِي أَنَّ  
فِي تِلْكَ الأَنْحَاءِ قَارَةً كَبِيرَةً. وَلَوْ تَرَكَ الأَمْرُ إِلَيَّ لِأَوْصَيْتُ بِتَصْوِيبِ المَصُورَاتِ الجُغْرَافِيَّةِ،  
وَتَلَا فِي هَذَا النِّقْصِ فِيهَا، وَضَمَّ هَذِهِ البِلَادِ الفَسِيحَةَ إِلَى الأَقْصَامِ الشَّمَالِيَّةِ الغَرِيبَةِ فِي

«أمريكا». وِئِي مُسْتَعِدُّ لِمَعَاوَنَتِهِمْ فِي ذَلِكَ — إِذَا شَاءُوا — وَالْإِفْضَاءِ إِلَيْهِمْ بِمَا أَعْلَمُهُ عَنِ هَذِهِ الْبِلَادِ.

### (٢) وَصْفُ «بِرِيدُنْجَاغِ»

وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْمَمْلَكَةُ إِلَّا شَبَهُ جَزِيرَةً كَبِيرَةً، تَنْتَهِي شَمَالًا بِسِلْسِلَةِ جِبَالٍ يَبْلُغُ ارْتِفَاعُهَا نَحْوَ ثَلَاثِينَ مِيلًا تَقْرِيبًا، وَلَا سَبِيلَ إِلَى الدُّنُوِّ مِنْهَا لِكثْرَةِ مَا فِي ذُرَاهَا مِنَ الْبَرَائِكِينَ. وَلَيْسَ فِي عُلَمَاءِ الْجُغْرَافِيَةِ عَالِمٌ وَاحِدٌ يَعْرِفُ مَا وَرَاءَ هَذِهِ الْجِبَالِ الشَّامِخَةِ مِنَ السُّكَّانِ، وَهَلْ هِيَ مَأْهُولَةٌ بِأَبْنَاءِ آدَمَ أَوْ غَيْرِ مَأْهُولَةٍ؟

وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ — عَلَى سَعَتِهَا — مَرْفَأٌ وَاحِدٌ تَرْسُو عَلَيْهِ السُّفُنُ، وَإِنَّكَ لَتَجِدُ — عِنْدَ مَصَابِّ الْأَنْهَارِ كُلِّهَا — كَثِيرًا مِنَ الصُّخُورِ الْمُرْتَفِعَةِ الْوَعْرَةِ، وَتَرَى الْبَحَرَ فِي تِلْكَ الْجِهَاتِ كَثِيرِ الْأَضْطِرَابِ، حَتَّى لَيَتَعَذَّرُ عَلَى أَيِّ إِنْسَانٍ أَوْ آيَةِ سَفِينَةٍ الْإِقْتِرَابُ مِنْهَا. وَقَدْ كَانَ هَذَا سَبَبًا فِي عُزْلَةِ هَذِهِ الْبِلَادِ عَنِ الْعَالَمِ، وَإِنْقِطَاعِ الْمَعَامَلَاتِ التِّجَارِيَّةِ بَيْنَ أَهْلِهَا وَبَيْنَ بَقِيَّةِ سُكَّانِ الدُّنْيَا.

### (٣) سَمَكُ «بِرِيدُنْجَاغِ»

وَفِي هَذِهِ الْبِلَادِ أَنْهَارٌ كَبِيرَةٌ غَاصَّةٌ بِأَفْخَرِ أَنْوَاعِ السَّمَكِ، وَقَلَّمَا تَرَى أَحَدًا فِي تِلْكَ الْبِلَادِ يَصِيدُ السَّمَكَ مِنَ الْمُحِيطِ، لِأَنَّهُ لَا يَزِيدُ — فِي حَجْمِهِ — عَنِ السَّمَكِ الَّذِي نَرَاهُ فِي بِلَادِنَا وَنَسْتَخْرِجُهُ مِنَ الْبِحَارِ، وَهُوَ — فِي نَظَرِهِمْ — سَمَكٌ صَغِيرٌ جَدًّا لَا يُكَافِئُ مَا يُبَدَّلُ فِي صَيْدِهِ مِنْ عَنَاءٍ.

وَكَأَنَّمَا خَصَّتِ الطَّبِيعَةُ سُكَّانَ هَذِهِ الْبِلَادِ بِكُلِّ مَا يُنَاسِبُ ضَخَامَتَهُمْ؛ فَقَدْ وَهَبَهُمُ اللَّهُ — سُبْحَانَهُ — أَرْضًا فَسِيحَةً الْأَرْجَاءِ، وَأَشْجَارًا سَامِقَةً الْعُلُوِّ بِالْغَةِ الْارْتِفَاعِ، وَحَيَوَانَاتٍ غَايَةً فِي ضَخَامَةِ الْأَجْسَامِ، فَكَانَ كُلُّ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ يُنَاسِبُ — فِي ضَخَامَتِهِ وَكِبَرِ حَجْمِهِ — سُكَّانَهَا.

وَقَدْ رَأَيْتُ — زَاتَ يَوْمٍ — حُوتًا عَظِيمًا قَدْ اصْطَادَهُ أَحَدُ الصَّيَادِينَ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ عَمَلًا — مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْبِلَادِ — أَنْ يَحْمِلَهُ عَلَى كَتْفَيْهِ لِضَخَامَتِهِ إِلَّا بِجُهْدٍ شَدِيدٍ، وَقَدْ رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْحَيَاتَانِ عَلَى مَائِدَةِ الْمَلِكِ.

وفي هذه المملَكةِ إحدَى وَحَمْسُونَ مَدِينَةً، وَمِائَةٌ ضَاحِيَةٌ تَكْتَنِفُهَا الْأَسْوَارُ، وَعَدَدٌ لَا يُحْصَى مِنَ الْفُرَى الصَّغِيرَةِ وَالْمَحَلَّاتِ، وَكُلُّهَا آهَلَةٌ بِالسُّكَّانِ.

#### (٤) قَصَبَةُ «بُرْبُدُنْجَاجِ»

وليس في قُدْرَتِي أَنْ أَصِفَ بِلَادَ هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ كُلِّهَا، فَلْيَقْنَعِ الْقَارِئُ مِنِّي بِوصفِ الْعَاصِمَةِ الَّتِي أَقَمْتُ فِيهَا رَدْحًا مِنَ الزَّمَنِ.

يَخْتَرِقُ هَذِهِ الْمَدِينَةَ نَهْرٌ كَبِيرٌ فَيَقْسِمُهَا قِسْمَيْنِ مُتَسَاوَيْنِ تَقْرِيبًا، وَبِهَا ثَمَانُونَ أَلْفَ مَنَزِلٍ، وَلَا يَقِلُّ عَدَدُ سَكَّانِهَا عَنْ سِتِّمِائَةِ أَلْفِ نَسَمَةٍ. وَهِيَ أَطْوَلُ مِنْ «إِنْجَلِتْرَا» بِنَحْوِ أَرْبَعَةِ وَخَمْسِينَ أَلْفَ مَرَّةٍ، وَعَرْضُهَا أَفْسَحُ مِنْ عَرْضِ «إِنْجَلِتْرَا» بِنَحْوِ خَمْسَةِ وَأَرْبَعِينَ أَلْفَ مَرَّةٍ، وَقَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ مِنَ الْمُصَوِّرَةِ الْمَلِكِيَّةِ لِهَذِهِ الْبِلَادِ، وَطَوَّلُهَا مِائَةٌ قَدِيمًا، وَقَدْ وَضَعَهَا الْعُلَمَاءُ إِجَابَةً لِرَغْبَاتِ الْمَلِكِ.

وَقَدْ بَسِطْتُ عَلَى الْأَرْضِ لِأَدْرُسَهَا.

أَمَّا قَصْرُ الْمَلِكِ فَهُوَ عَلَى شَيْءٍ قَلِيلٍ مِنَ النَّظَامِ، يَتَأَلَّفُ مِنْ عِدَّةِ أُنْبِيَّةٍ مُتَقَارِبَةٍ، وَفِيهِ نَحْوُ سَبْعَةِ آلَافِ قَبْوٍ، وَيَبْلُغُ ارْتِفَاعُ أَكْبَرِ الْحُجَرِ فِيهِ مِائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ قَدَمًا.

#### (٥) فِي شَوَارِعِ «بُرْبُدُنْجَاجِ»

وَقَدْ أَعْدَدُوا لِي عَرَبَةً لِأَتَنْزَّهَ — مَعَ الْحَاضِنَةِ — فِي شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ وَمِيَادِينِهَا، وَأَزُورَ فَنَادِقَهَا وَحَدَائِقَهَا، وَكَانَتْ هَذِهِ الْعَرَبَةُ أَشْبَهَ بِحُجْرَةٍ كَبِيرَةٍ مُرَبَّعَةِ الشَّكْلِ.

وَإِنِّي لِأَذْكُرُ أَنَّ الْعَرَبَةَ قَدْ وَقَفْتُ بِهَا — ذَاتَ يَوْمٍ — عِنْدَ دُكَّانِ أَحَدِ التُّجَّارِ، فَانْتَهَزَ الْمُسْتَجِدُّونَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ، وَأَقْبَلُوا إِلَى بَابِ الْعَرَبَةِ يَتَكَفَّفُونَ؛ فَرَأَيْتُ أَمَامِي جَمَهْرَةً مِنَ الْمَرْضَى وَالْعَجَزَةِ، وَذَوِي الْعَاهَاتِ، وَهُمْ مَشُوهُو الْخَلْقَةِ، وَعَلَى أَجْسَادِهِمْ كُومَاتٌ مِنَ الْقَادُورَاتِ، وَقَدْ تَقَيَّحَتْ جُرُوحُهُمْ، وَسَرَتْ فِيهَا جَرَائِمُ الْأَمْرَاضِ الْفَتَّاكَةِ، وَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ — مَا حَيَّيْتُ — تِلْكَ الْمُنَاطِرَ الْمُزْعِجَةَ الْمُفْرَعَةَ الَّتِي رَأَيْتُهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ. وَلِلْقَارِئِ أَنْ يَتَخَيَّلَ شِعُورِي — حِينئِذٍ — وَأَنْ يَحْكُمَ بِنَفْسِهِ عَلَى الْأَثْرِ السَّيِّئِ الَّذِي تَرَكْتُهُ فِي نَفْسِي رُؤْيَةً هُوَ لَا الْمَشُوهِينَ، وَلَعَلَّهُ يُعْفِينِي مِنَ الْإِفَاضَةِ فِي أَوْصَافِهِمُ الْبَشْعَةَ.



## (٦) الْحُسْنُ وَالْقُبْحُ

ولقد مرّت بِخاطري — في أثناء إقامتي في هذه البلاد — خَوَاطِرٌ فَلَسْفِيَّةٌ أَفْضِي بِهَا إِلَى الْقَارِيءِ، لَعَلَّ فِيهَا شَيْئًا مِنَ الْفَائِدَةِ، وَدَرَسًا نَافِعًا لِمَنْ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَعَرَّفُوا حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ، وَيَتَغَلَّغُوا فِي لُبَابِهَا وَصَمِيمِهَا، دُونَ أَنْ تَخْدَعَهُمْ ظَوَاهِرُهَا الْخَلَابَةِ، فَقَدْ أَتَاخَتْ لِي الْفُرْصَةُ أَنْ أَرَى كَثِيرًا مِنْ رِجَالِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ وَنِسَائِهَا، وَلَاخِظْتُ أَنْ أَجْسَمَ أَكْثَرَ مَنْ رَأَيْتُ غَيْرَ مُتَسَقِّةٍ وَلَا مُنَاسِبَةٍ. وَقَدْ عَرَفْتُ سِرَّ هَذَا التَّنَافُرِ؛ فَإِنَّ الْعُيُوبَ إِذَا صَغُرَتْ قَلَّمَا يَرَاهَا الْإِنْسَانُ إِلَّا إِذَا كَانَ وَاسِعَ الْخَبْرَةِ، دَقِيقَ الْمَلَاخِظَةِ، فَإِنَّ كِبَرَتْ هَذِهِ الْعُيُوبُ وَضُوعِفَتْ أَذْرَكَهَا الْإِنْسَانُ بِأَذْنَى نَظَرٍ، وَأَيْسَرَ مَلَاخِظَةٍ؛ فَهَذَا الْوَجْهَ الْحَسَنُ — الَّذِي أَعْجَبَكَ جَمَالَهُ، وَفَتَنَتْكَ رَوْعَتُهُ، وَالَّذِي انْتَضَمَتْ أَجْزَاؤُهُ، وَتَنَاسَبَتْ فِيهِ الْعَيْنَانِ وَالْأَنْفُ وَالْفَمُ وَالذَّقْنُ وَالْوَجْنَتَانِ وَالْحَبِيبُ — يَرُوعُكَ مَنَظَرُهُ، فَتَصِفُهُ بِشَتَّى أَوْصَافِ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ، فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِ وَرَاءَ مَجْهَرٍ، ظَهَرَ لَكَ كُلُّ مَا فِيهِ مِنْ عُيُوبٍ وَتَشْوِيهِ لَا تَرَاهُ الْعَيْنُ الْمَجْرَدَةُ. وَنَمَّةٌ يَنْقَلِبُ إِعْجَابُكَ بِهِ وَافْتِنَانُكَ، تَقَرُّزًا وَاسْتِبْشَاعًا؛ إِذْ تَرَى بَشْرَةَ ذَلِكَ الْوَجْهِ الْغَضَّةِ الرَّقِيقَةِ حَشِيَّةً جَامِدَةً، كَثِيرَةَ التَّجَاعِيدِ، وَاسِعَةَ التَّقُوبِ، لَيْسَ فِيهَا مَا كُنْتَ تَرَاهُ مِنْ جَمَالٍ وَطَرَاوَةٍ، وَهَذَا هُوَ سِرُّ مَا رَأَيْتَهُ فِي هَؤُلَاءِ الْعَمَالِقَةِ مِنْ تَنَافُرٍ وَتَشْوِيهِ، وَلَقَدْ صَدَقَ الْفِيلَسُوفُ الْقَدِيمُ حِينَ قَالَ: «لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مَخْلُوقٌ دَمِيمٌ، فَإِنَّ كُلَّ مَا أَخْرَجْتَهُ يَدُ ذَلِكَ الصَّانِعِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَبَدَعَ الْكُونَ، وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، إِنَّمَا هُوَ جَمِيلٌ!»

## (٧) فِي الزُّورِقِ الصَّغِيرِ

وَكَانَتْ الْمَلِكَةُ — كَمَا قُلْتُ — تَأَنَسُّ إِلَى حَدِيثِي، وَتَطَلَّبُ مِنْهُ الْمَزِيدَ، وَتَتَوَخَّى تَسْلِيَتِي وَإِنْهَاجِي كُلَّمَا وَجَدْتَنِي مُفَكَّرًا مَهْمُومًا. وَكُنْتُ كَثِيرًا مَا أَقْصُ عَلَيْهَا أَنْبَاءَ أَسْفَارِي وَرِحْلَاتِي فِي الْبَحَارِ، فَسَأَلْتَنِي ذَاتَ يَوْمٍ:

«أَفِي قُدْرَتِكَ أَنْ تَسْتَقِلَّ زُورِقًا، وَأَنْ تَحْدِيفَ، فَلَا يُصِيبُكَ ضَرَرٌ؟ أَوَّلًا تَرَى فِي مِثْلِ هَذَا التَّمْرِينِ سَلْوَى لِمَهْمُومٍ وَأَحْزَانِكَ، وَخَلَاصًا مِنْ شُجُونِكَ وَأَفْكَارِكَ، وَتَقْوِيَةً لِحَسْمِكَ، وَتَوْفِيرًا لِصِحَّتِكَ؟»

فَقُلْتُ لَهَا: «إِنِّي جَدُّ حَبِيرٍ بِالْمَلَاخَةِ؛ فَقَدْ كَانَتْ مِهْنَتِي الَّتِي تَخَصَّصْتُ لَهَا أَنْ أَكُونَ طَبِيبًا لِلسُّفْنِ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يَضْطَرُّنِي — فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ — أَنْ أَعْمَلَ مَعَ

المَلَّاحِينَ. ولكنني لا أستطيع أن أَسْتَقِلَّ زَوْرَقًا في هذه البلاد؛ فَإِنْ أَصْغَرَ زَوْرَقٍ عِنْدَكُمْ كَأَكْبَرِ سَفِينَةٍ حَرْبِيَّةٍ عِنْدَنَا! على أنني إِذَا ظَفَرْتُ بِزَوْرَقٍ صَغِيرٍ يُنَاسِبُ حَجْمِي، فَلَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَجِدَفَ مُدَّةً طَوِيلَةً فِي عُبَابِ أَنْهَارِكُمْ الوَاسِعَةِ؛ فَإِنَّ قُوَايَ مَحْدُودَةٌ، مَنَاسِبَةٌ ضَالَّةٌ جِسْمِي.»

فَقَالَتْ لِي جَلَالَتُهَا: «أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمُرَ النَّجَّارَ — إِذَا سِئْتَتْ — أَنْ يَصْنَعَ لَكَ زَوْرَقًا صَغِيرًا يُنَاسِبُ حَجْمَكَ، كَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَهْيِيَّ لَكَ مَكَانًا صَالِحًا لِتَسِيرِ هَذَا الزَّوْرَقِ الصَّغِيرِ.»

فَشَكَرْتُ لَهَا هَذِهِ العُنَايَةَ الَّتِي اخْتَصَّتْنِي بِهَا، وَلَمْ يَمِضْ عَلَى ذَلِكَ سِتَّةَ أَيَّامٍ حَتَّى أَتَمَّ النَّجَّارُ صُنْعَ سَفِينَةٍ صَغِيرَةٍ كَامِلَةِ المَعْدَاتِ، تَحْمَلُ ثَمَانِيَةَ مَنْ أَمْثَالِي، فَلَمَّا أَتَمَّ أَمْرَهُ المَلِكَةُ بِعَمَلِ حَوْضٍ مِنَ الخَشَبِ طَوْلُهُ ثَلَاثِمِائَةَ قَدَمٍ، وَعَرْضُهُ خَمْسُونَ قَدَمًا، وَعُمُقُهُ ثَمَانِي أَقْدَامٍ، وَأَنْ يَطْلِيَهُ بِالقَارِ — بَعْدَ الإِنْتِهَاءِ مِنْ صُنْعِهِ — حَتَّى لَا يَنْسَرِبَ إِلَيْهِ المَاءُ، ثَمَّ يَضَعُ ذَلِكَ الحَوْضَ فِي بَهْوٍ خَارِجِيٍّ مِنْ أَبْهَاءِ القَصْرِ، وَقَدْ أَوْصَتْهُ بِعَمَلِ البَلُوعَةِ فِي قَاعِ الحَوْضِ لِتَصْرِيفِ المَاءِ وَتَجْدِيدِهِ، فِي الفَيْئَةِ بَعْدَ الفَيْئَةِ، فَلَمَّا أَتَمَّ صُنْعَ الحَوْضِ مَلَأَهُ اثْنَانِ مِنَ الخَدَمِ فِي نِصْفِ سَاعَةٍ.

وَقَدْ وَقَفَتِ المَلِكَةُ وَوَصِيفَاتُهَا يَرْقُبْنَ رُكُوبِي، وَأُعْجِبْنَ بِمَهَارَتِي وَخَبْرَتِي إِعْجَابًا شَدِيدًا.



وَكُنْتُ أَنْشُرُ الشَّرَاعَ أَحْيَانًا، وَأَقُودُ الزُّورَقَ حَتَّى يَقْتَرِبَ مِنْهُنَّ، فَيُعْمَلَنَ المِرَاوِحَ،  
فِيكْفِي هَوَاؤُهَا لِدَفْعِ الشَّرَاعِ وَتَسْيِيرِ الزُّورَقِ، فَإِذَا تَعَبَنَ مِنْ ذَلِكَ جَاءَ الخُدْمُ فَنَفَخُوا  
بَأَفْوَاهِهِمْ، فَيَنْطَلِقُ الزُّورَقُ فِي الحَوْضِ. وَكُنْتُ أَظْهَرُ أَمَاهُنَّ — فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَيَّامِ —  
مَهَارَتِي فِي تَسْيِيرِ الزُّورَقِ مِنَ الجَانِبِ الأَيْمَنِ إِلَى الأَيْسَرِ — كَمَا يَحْلُو لِي — وَكُنُّ يَعْجَبُونَ  
مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ العَجَبِ.

فَإِذَا انْتَهَيْتُ مِنْ ذَلِكَ، رَفَعَتِ الحَاضِنَةُ زُورَقِي بِيَدِهَا، وَعَلَّقَتْهُ بِمِسْمَارٍ فِي حَائِطِ  
القَصْرِ لِيَجِفَّ.

### (٨) عَلَى شِفاِ الهَلَاكِ

وَقَدْ وَقَعَ لِي — ذَاتَ يَوْمٍ — حَادِثٌ مُرَوِّعٌ كَادَ يَقْضِي عَلَى حَيَاتِي، فَقَدْ وَضَعَ أَحَدُ الخُدْمِ  
الزُّورَقَ فِي الحَوْضِ، وَمَا هَمَمْتُ بِالدَّهَابِ إِلَيْهِ حَتَّى جَاءَتْ سَيِّدَةٌ فَرَفَعْتَنِي بِيَدِهَا لِتَضْعَنِي  
فِي السَّفِينَةِ؛ فَانزَلْتُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهَا، وَكِدْتُ أَهْوِي مِنْ هَذَا الإِرْتِفَاعِ الشَّامِخِ الَّذِي لَا يَقِلُّ  
عَنْ أَرْبَعِينَ قَدَمًا. وَلَكِنَّ اللَّهَ كَتَبَ لِي السَّلَامَةَ مِنْ هَذَا الهَلَاكِ المُحَقَّقِ، فَعَلَّقْتُ ثِيَابِي —  
لِحُسْنِ حَظِي — بـ«دَبُوسٍ» كَبِيرٍ كَانَ فِي ثِيَابِهَا مُحَاذِيًا صَدْرَهَا، فَلَبِثْتُ مَعْلَقًا فِي الهَوَاءِ،  
وَأَسْرَعَتِ الحَاضِنَةُ إِلَيَّ، فَأَنْقَذْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ.

### (٩) ضِفْدَعُ «بَرْبِدِنَجَا»

وَوَقَعَتْ لِي حَادِثَةٌ أُخْرَى مُفْزِعَةٌ لَا أَنْسَاهَا مَا حَيِّتُ، فَقَدْ أَهْمَلَ أَحَدُ الخَادِمِينَ المَنْوِطِ  
بِهِمَا مَلَأَ الحَوْضَ، وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِمَا أَنْ يُجَدِّدَا مَاءَهُ مَرَّةً فِي كُلِّ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ؛ فَفَقَزَ ضِفْدَعُ  
كَبِيرٌ إِلَى الحَوْضِ وَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنْهُمَا، وَاخْتَفَى فِي المَاءِ حَتَّى رَأَى زُورَقِي، فَفَقَزَ عَلَيَّ  
أَحَدَ جَانِبَيْهِ، فَأَمَالَهُ حَتَّى كَادَ يُغْرِقُهُ، فَجَلَسْتُ فِي الجَانِبِ الأَخْرَ مِنَ الزُّورَقِ؛ لِأَحْوَالِ دُونَ  
إِغْرَاقِهِ، وَظَلَلْتُ أَضْرِبُ ذَلِكَ الضَّفْدَعُ بِمَجْدَانِي — بِقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ — حَتَّى قَفَزَ إِلَى المَاءِ ثَانِيَةً.  
وَقَدْ تَرَكَ هَذَا الحَادِثَ فِي نَفْسِي أَثْرًا لَا يُمَحَى، وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْسَاهُ طَوْلَ عُمْرِي!



### (١٠) قِرْدُ «بُرَيْدِنَجَا»

وَهَيْهَاتَ أَنْ أَنْسَى أَشْأَمَ حَادِثٍ وَقَعَ لِي فِي هَذِهِ الْبِلَادِ: فَقَدْ أَغْلَقْتُ عَلَيَّ الْحَاضِنَةَ بَابَ الْحُجْرَةِ — ذَاتَ يَوْمٍ — وَخَرَجْتُ لِبَعْضِ شَأْنِهَا، وَكَانَ الْيَوْمُ شَدِيدَ الْحَرِّ، فَفَتَحْتُ نَافِذَةَ عُلبَتِي الْمُطَلَّةَ عَلَى بَهْوِ الْقَصْرِ، وَإِنِّي لَغَارِقٌ فِي تَفْكِيرِي وَأُخْزَانِي عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الْمِنْضَدَةِ، إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا غَرِيبًا، وَأَحْسَسْتُ شَيْئًا يَدْخُلُ الْبِهْوَ — مِنْ نَافِذَتِهِ الْمَفْتُوحَةِ — ثُمَّ يَقْفِرُ فِيهِ، فَاُمْتَلَأَ قَلْبِي رُغْبًا، وَلَكِنِّي تَشَجَّعْتُ قَلِيلًا، وَنَظَرْتُ مِنْ نَافِذَةِ عُلبَتِي وَأَنَا جَالِسٌ فِي مَكَانِي، فَرَأَيْتُ حَيَوَانًا يَدْنُو مِنَ الْعَلْبَةِ وَيَنْظُرُ إِلَيَّ، وَقَدْ بَدَتْ عَلَيْهِ أَمَارَاتُ الْمَرَحِ وَالذَّهْشَةِ؛ فَانْزَوَيْتُ فِي أَقْصَى رُكْنٍ مِنَ الْحُجْرَةِ، وَقَدْ فَاتَنِي — لِسُوءِ حَظِّي — أَنْ أُحْتَبِئَ تَحْتَ سَرِيرِي، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مَيْسُورًا لِي — لَوْ فَطَنْتُ إِلَيْهِ — وَلَكِنَّهُ الْقَضَاءُ الَّذِي لَا مَرَدَّ لِحُكْمِهِ، وَلَا حِيلَةَ لِلإِنْسَانِ فِي دَفْعِهِ.

وَتَمَكَّنَ ذَلِكَ الْحَيَوَانَ — وَقَدْ عَلِمْتُ بَعْدَ قَلِيلٍ أَنَّهُ قِرْدٌ — مِنْ إِدْخَالِ يَدِهِ مِنْ نَافِذَةِ الْعَلْبَةِ، حَيْثُ أَمْسَكَ بِدَيْلِ ثُوبِي — وَهُوَ مَصْنُوعٌ مِنَ الْجُوحِ الْعَلِيطِ الْاُمْتِينِ — وَجَذَبَنِي بِقُوَّةٍ إِلَى الْخَارِجِ، ثُمَّ حَمَلَنِي فِي كَفِّهِ الْيُمْنَى — كَمَا تَحْمِلُ الْأُمُّ رَضِيعَهَا لِتَرْضِعَهُ —

فذكرني ذلك بِقِرْدٍ خبيثٍ رأيتُه في بلادي يصنعُ مثلَ هذا مع قِطِّ صغيرٍ، وما هَمَمْتُ بِمُقاومته حتى ضَمَنِي ضَمَّةً عَنيفَةً كادت تُزهِقُ رُوحِي؛ فرأيتُ مِنَ الحَرَامَةِ وَالكِياسَةِ أَنْ أُدْعِنَ لِلْقَدْرِ، وَأُكْفَّ عَنِ المُقاومَةِ. وكأَنما توهَمَني قِرْدًا صغيرًا، لأنَّه كان يُداعِبُني وَيُرَبِّتُ وَجْهي بيدهِ مَتَرَفًا مَسْرورًا.

وأحسَّ القِرْدُ حَقَّقَ أَقدامِ قَريبَةٍ، وَسَمِعَ صَريِرَ المِفتاحِ، فَكَفَّ عَنِ مُداعِبَتِي فَجأةً، وَقَفَزَ مُسرِعًا — مِنَ النَافِذَةِ التي جاءَ منها — إِلى المِيزابِ، وَهو يَسيرُ على رِجَليْنِ، وَيَدِ واحِدَةٍ، فَقَدَ أَمسَكَنِي بِاليَدِ الأُخْرَى، وما زالَ يَقفِزُ حتى وَصَلَ إِلى سَطْحِ البَيتِ المُجاوِرِ لنا. وَسَمِعْتُ في هَذِهِ اللَحْظَةِ صَراخًا هائِلًا مُنبَعثًا مِنَ الحاضِنَةِ التي أَفَعَمَ قَلْبَها الفَرَغُ، وَاسْتَوَلَى عليها اليأسُ حتى كادَ يُفقدُها رُشدَها. وَأَسْرَعَ خَدَمُ القَصْرِ يُحاولونَ إنقاذِي، فلا يَجِدونَ إِلى ذلكَ سَبيلًا. وجاءَ بعضُهم بالسَّلامِ، واجْتَمَعَ كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ ليرَوا هَذا المَنظَرَ العَجيبَ، وَقَدَ جَلَسَ القِرْدُ على ذِروَةِ السَّطْحِ، وحَمَلَنِي في إِحدى كَفَّيهِ — كما يَحْمِلُ الطِّفْلُ دُميَتَهُ — وَظَلَّ يُطعِمُني بِكَفِّهِ الأُخْرَى، وَيَزُجُّ بِقِطْعِ اللَّحْمِ — التي سَرَقَها — في فَمِي زَجًّا، وَكَلِمًا امْتَنَعْتُ عَنِ الأَكْلِ لَطَمَني؛ فَأَدْعَنْتُ لَهُ مُرَعَمًا، وَقَدَ أَضْحَكَ القِرْدُ — بِهَذَا العَمَلِ — كَثيرًا مِنَ السُّفَهائِ الَّذينَ وَقَفُوا يَشْهَدُونَ ذلكَ المَنظَرَ، فلمَ يَتَمالكُوا مِنَ الضَّحِكِ — وَلَهُمُ الحَقُّ — فَقَدَ كانَ المَنظَرُ مُسَلِّيًا مُضْحِكًا حَقًّا، إِلاَّ في نَظري أَنَا وَحَدي؛ إِذْ كُنْتُ بَطَلًا هَذِهِ المَأساةِ المُفجِعَةِ، وَكُنْتُ عُرْضَةً لِلهَلَاكِ بَينَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى!



وَهَمَّ بَعْضُ النَّظَّارَةِ بِقَذْفِهِ بِالْحِجَارَةِ، لِيُرْغَمُوهُ عَلَى النَّزُولِ مِنْ سَطْحِ الْقَصْرِ إِلَى الْأَرْضِ، وَلَكِنَّهُمْ عَدَلُوا عَنْ ذَلِكَ خَشْيَةَ أَنْ يُصِيبَنِي حَجْرٌ مِنْ أَحْبَارِهِمْ، فَيُحَطِّمَ رَأْسِي تَحْطِيمًا. وَمَا ارْتَقُوا السَّلَامَ، حَتَّى فَزِعَ الْقَرْدُ وَفَرَّ هَارِبًا مِنْ مَكَانِهِ، بَعْدَ أَنْ تَرَكَنِي أَهْوِي مِنْ ذَلِكَ الْعُلُوِّ الْهَائِلِ، وَقَدْ كُنْتُ — لَا شَكَّ — هَالِكًا، لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ بِي وَعِنَايَتُهُ؛ فَقَدْ سَقَطْتُ عَلَى أَحَدِ مَيَازِبِ الْقَصْرِ، فَأَسْرَعَ غُلَامٌ نَشِيطٌ إِلَى مَكَانِي، فَأَنْقَذَنِي مِنَ السَّقُوطِ. ثُمَّ وَضَعَنِي فِي جَيْبِهِ، وَعَادَ — مِنْ حَيْثُ أَتَى — فَأَسْلَمَنِي إِلَى الْحَاضِنَةِ الصَّغِيرَةِ، وَقَدْ فَرِحَتْ بِسَلَامَتِي مِنَ الْهَلَاكِ فَرَحًا لَا يُوصَفُ.

وَلَا أَكْتُمُ الْقَارِئُ أَنْنِي كُنْتُ عَلَى وَشَكِّ الْإِحْتِنَاقِ بِتِلْكَ الْأَقْدَارِ الَّتِي كَانَ يَزُجُّ بِهَا الْقَرْدُ فِي فَيْمِي، وَقَدْ أَدْرَكْتَ الْحَاضِنَةَ حَقِيقَةَ أَمْرِي، فَبَذَلَتْ كُلَّ جُهِدِهَا حَتَّى تَقَايَأَتْ؛ فَخَفَّ مَا بِي مِنَ الْأَلَمِ. وَكَانَ الضَّعْفُ قَدْ بَلَغَ بِي كُلَّ مَبْلَغٍ، وَكَادَتْ أَضْلَاعِي تَتَكَسَّرُ مِنْ ضَمَّةِ ذَلِكَ الْقَرْدِ الْخَبِيثِ، وَبَقِيَتْ طَرِيحَ الْفِرَاشِ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا كَامِلَةً، وَكَانَ الْمَلِكُ وَحَاشِيَتُهُ يَبْعَثُونَ إِلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِتَحِيَّاتِهِمْ مُسْتَفْسِرِينَ عَنْ صِحَّتِي. وَقَدْ شَرَفْتَنِي الْمَلِكَةُ بِزِيَارَاتٍ عِدَّةٍ إِبَّانَ مَرَضِي. ثُمَّ صَدَرَ الْأَمْرُ بِإِهْلَاكِ ذَلِكَ الْقَرْدِ، وَإِبْعَادِ جَمِيعِ الْقِرَدَةِ، وَأَلَّا يُرْخَصَ لِأَحَدٍ مِنَ الْقَاطِنِينَ فِي الشُّوَارِعِ الْمَجَاوِرَةِ لِلْقَصْرِ بِاقْتِنَاءِ قَرْدٍ فِي بَيْتِهِ.

## (١١) فِي حَضْرَةِ الْمَلِكِ

وما تَمَاتَلْتُ مِنَ الْمَرَضِ، وَدَخَلْتُ فِي دَوْرِ النَّقْهِ، حَتَّى زَهَبْتُ إِلَى جَلَالَةِ الْمَلِكِ لِأَشْكُرَ لَهُ تَفَضُّلَهُ بِالسُّؤَالِ عَنِّي، وَالْعِنَايَةَ بِأَمْرِي. وَلَمَّا مَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ حَيَّانِي مَبْتَسِّمًا، وَظَلَّ يُدَاعِبُنِي، وَقَدْ أَغْرَبَ فِي الضَّحِكِ حِينَ تَصَوَّرَ ذَلِكَ الْحَادِثَ الْمُفْزِعَ الَّذِي وَقَعَ لِي، وَسَأَلَنِي مُسْتَفْسِرًا:

«خَبَّرَنِي كَيْفَ كَانَ وَقَعُ هَذَا الْحَادِثِ فِي نَفْسِكَ؟ وَأَيُّ أَثَرٍ تَرَكَه؟ وَمَاذَا أَحْسَسْتَ وَأَنْتَ بَيْنَ يَدَيْ الْقِرْدِ؟ وَهَلْ اسْتَطَبْتَ مَا قَدَّمَهُ لَكَ مِنْ لَحْمٍ شَهِيٍّ؟ وَهَلْ زَادَ الْهَوَاءُ النَّقِيَّ — الَّذِي اسْتَنْشَقْتَهُ فَوْقَ سَطْحِ الْقَصْرِ — فِي شَهِيَّتِكَ لِذَلِكَ الطَّعَامِ الطَّيِّبِ؟ وَأَيُّ أَثَرٍ كَانَ يَتْرُكُهُ مِثْلُ هَذَا الْحَادِثِ فِي نَفْسِكَ لَوْ وَقَعَ لَكَ فِي بِلَدِكَ؟»

فَقُلْتُ لِجَلَالَتِهِ: «لَيْسَ فِي أَوْرَبَةٍ مِنَ الْقِرْدَةِ إِلَّا مَا نَجَلِبُهُ مِنَ الْبِلَادِ الْأُخْرَى، عَلَى أَنَّ الْقِرْدَةَ — الَّتِي نَرَاهَا فِي بِلَادِنَا — غَايَةٌ فِي الصَّغَرِ، فَلَا يَحْتَشَى أَذَاهَا أَحَدٌ.

أَمَّا هَذَا الْقِرْدُ الَّذِي اخْتَطَفَنِي — وَهُوَ فِي مِثْلِ ضَخَامَةِ الْفَيْلَةِ عِنْدَنَا — فَهُوَ مَرْهُوبُ الْأَذَى، مَخْشِيُّ الضَّرَرِ. عَلَى أَنَّي أُؤَكِّدُ لِمَوْلَايَ أَنَّ الْخَوْفَ قَدْ أَذْهَلَنِي عَنْ مُقَاوَمَتِهِ، فَأَنْسَانِي أَنْ أُجَرِّدَ حُسَامِي لِمَصَاوِلَتِهِ وَدَفَعُ أَذَاهُ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَضَرَبْتُ يَدَهُ بِالْحُسَامِ حِينَ أَدْخَلَهَا فِي حُجْرَتِي؛ إِذَنْ لَجَرَحْتُهَا جُرْحًا بَلِيغًا، يَدْفَعُ عَنِّي أَذِيَّتَهُ، وَيُرْجِعُهُ مِنْ حَيْثُ أَتَى!»

وَقَدْ تَمَلَّكْتَنِي الْحَمَاسَةُ وَالْعُرُورُ — حِينَئِذٍ — فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَى مَقْبِضِ سَيْفِي — شَأْنَ الْفَارِسِ الشُّجَاعِ الْمُخْتَبَلِ — وَكَانَتْ نَبْرَاتُ صَوْتِي تَدُلُّ عَلَى الزَّهْوِ، وَقَدْ تَمَلَّكْنِي سُعُورُ الرَّجُلِ النَّبِيلِ الْغَيُورِ عَلَى شَرْفِهِ!

وَرَأَى الْعَمَالِقَةُ أَمَامَهُمْ حَشْرَةً ضَنْيَلَةً تُدَافِعُ عَنْ كِرَامَتِهَا وَشَرْفِهَا — مُبَاهِيَةً مَرْهُوَةً — فَلَمْ يَتَمَلَّكُوا مِنَ الضَّحِكِ، وَلَمْ يَحُلْ جَلَالُ مَجْلِسِ الْمَلِكِ وَوَقَارُهُ دُونَ أَنْ يَسْخَرُوا مِنْ غُرُورِي وَخَيْلَائِي.

فَأَدْرَكْتُ حَطِّي — حِينَئِذٍ — وَالتَّمَسْتُ لِهَوْلَاءِ الْعَمَالِقَةِ الْعُدْرَ فِي سُخْرِيَّتِهِمْ مِنِّي، وَذَكَرْتُ أَنَّ مِنَ الْبِلَاهَةِ أَنْ أُنْكَرَ الشُّجَاعَةَ وَالْقُوَّةَ أَمَامَ قَوْمٍ فِي مِثْلِ قُوَّةِ الْمَرْدَةِ وَطُولِ قَامَاتِهِمْ، وَتَمَلَّتُ غُرُورَ بَعْضِ الصَّعَالِيكِ الَّذِينَ طَالَمَا سَخِرْتُ — فِي بِلَادِنَا — مِنْ

أَدْعَاهُمْ وَتَبَجَّجَهُمْ أَمَامَ سُرَاةِ الْبِلَادِ وَحُكَّامِهَا، وَكَيْفَ كَانُوا يَتَظَاهَرُونَ بِالْمَجْدِ وَالشَّرَفِ،  
فَلَا يَلْفُونَ إِلَّا الْأَزْدِرَاءَ وَالتَّحْقِيرَ!

## (١٢) بَيْنَ الْحَاضِنَةِ وَ«جَلْفِر»

ولم أنس هذا الدرس — منذ ذلك اليوم — فأخذتُ على نفسي أن أجاريهم في عاداتهم،  
وأقص على الحاشية — في كل يوم — قصةً مضحكةً طريفةً، حتى أصبحتُ حبيباً إلى  
كلِّ نفسٍ.

وكانت الحاضنة — على حبها إياي — تميلُ إلى مُداعبتي، فتسرُّ إلى المَلِكَةِ بما أقعُ  
فيه من الغلط، لتشتريَّ مَعاً في السُرورِ والابتهاجِ، ولتضحكاً مِنِّي ما شاءت أن تضحكاً.  
فمن ذلك ما وقع لي — في أحدِ الأيام — إذ نزلتُ من العربةِ ومشيئتُ بالقربِ من  
الحاضنةِ، وإنِّي لأتنزّه إذ اعترضني في طريقي روثٌ بقرّةٍ، فأردتُ أن أظهرَ مهازتي؛  
فقفزتُ — من فوري — ولكنني سقطتُ لسوءِ حظِّي، ولم أخرجُ إلا بعدَ عناءٍ شديدٍ، وقد  
تلوّنتُ ثيابي، وحاولتُ الحاضنةُ والخدمُ تنظيفَها، فلم يستطيعوا ذلك. وأبّت الحاضنةُ  
الحمقاءُ إلا أن تُذيعَ نبأَ هذا الحادثِ في جميعِ أرجاءِ القصرِ المَلِكِيِّ ....





## الفصل الخامس

### (١) مُشْطُ «جِلْفَر»

كان من عَادَتِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْمَلِكِ عِنْدَ اسْتِيقَاضِهِ مِنَ النَّوْمِ فِي الصَّبَاحِ، مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ، وَكَثِيرًا مَا رَأَيْتُ الْحَلَّاقَ عِنْدَهُ وَهُوَ يَخْلُقُ لِحْيَتَهُ، وَأَذْكَرُ أَنَّنِي حِينَ رَأَيْتُهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى — وَالْحَلَّاقُ جَادٌّ فِي خَلْقِ لِحْيَتِهِ — اِمْتَلَأَتْ نَفْسِي رُغْبًا وَهَلَعًا؛ فَقَدْ كَانَ طَوْلُ الْمَوْسَى أَكْبَرَ مِنْ ضِعْفِ طَوْلِ الْمَنْجَلِ عِنْدَنَا.



وَكَانَ مِنْ عَادَةِ جَلَالَتِهِ أَنْ يَخْلُقَ لِحْيَتَهُ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ، عَلَى حَسَبِ تَقَالِيدِ هَذِهِ الْبِلَادِ وَعَادَاتِهَا.

وقد طلبتُ من الحَلَّاقِ — ذاتِ مرَّةٍ — أن يُعْطِيَنِي عِدَّةَ شَعْرَاتٍ مِنْ لِحْيَةِ الْمَلِكِ، فلم يتردَّدْ في إجابتي إلى طَلْبِي، فأخذتُ قطعةً صغيرةً مِنَ الخَشَبِ وثَقَّبْتُهَا — بِإِبْرَةٍ — عِدَّةَ ثُقُوبٍ عَلَى مَسَافَاتٍ مَتَسَاوِيَةٍ مُنْتَظِمَةٍ ثُمَّ أَدْخَلْتُ — فِي تِلْكَ الثُّقُوبِ — مَا أَخَذْتُهُ مِنْ شَعْرَاتِ الْمَلِكِ بِدَقَّةٍ وَانْتِظَامٍ، وَتَمَّ لِي صُنْعُ المِشْطِ الَّذِي أَرَدْتُهُ. وَكَانَ المِشْطُ الَّذِي أَحْضَرْتُهُ مَعِي مِنْ بِلَادِي قَدْ انْكَسَرَ؛ فَاسْتَبَدَلْتُ بِهِ هَذَا المِشْطَ المَتِينِ، بَعْدَ أَنْ عَجَزْتُ عَنْ الظَّفَرِ بِمِشْطِ صَغِيرٍ، وَبَيَّسْتُ مِنَ العُثُورِ عَلَى عَامِلٍ كُفَّءٍ يَصْنَعُ لِي المِشْطَ الَّذِي يُلَاقِمُنِي.

## (٢) كُرْسِيٌّ «جَلْفَر»

وَمَا إِنْ ظَفَرْتُ بِتَحْقِيقِ هَذِهِ الرُّغْبَةِ، حَتَّى سَنَحَ لِي خَاطِرُ آخِرٍ، فَرَجَوْتُ إِحْدَى خَادِمَاتِ الْمَلِكَةِ أَنْ تَلْتَقِطَ لِي مَا يَسْقُطُ مِنْ رَأْسِهَا مِنْ شَعْرَاتٍ — فِي أَثْنَاءِ امْتِشَاطِهَا — فَلَبَّتْ طَلْبِي، وَأَحْضَرَتْ لِي عِدَّةً كَبِيرًا مِنْ شَعْرَاتِ الْمَلِكَةِ، فَأَعْطَيْتُهَا لِلنَّجَارِ لِيَصْنَعَ لِي كُرْسِيَّيْنِ يُنَاسِبَانِ ضَالَّةَ جِسْمِي، وَأُرْشِدُنَّهُ إِلَى طَرِيقَةِ صُنْعِهِمَا، وَأَوْصَيْتُهُ أَنْ يَكُونَ فِي حَجْمِ الكُرْسِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ صَنَعْتُهُمَا مِنْ قَبْلُ، وَأَنْ يثُقَّبَ الخَشَبَ عِدَّةَ ثُقُوبٍ مُنْتَظِمَةً، فَلَمَّا أَتَمَّهَامَا مَلَأْتُ ثُقُوبَهُمَا بِشَعْرَاتِ الْمَلِكَةِ؛ فَأَصْبَحَ عِنْدِي مَقْعَدَانِ فَاخِرَانِ وَفَقَّ مَا أَشْتَهِي وَأُرِيدُ، ثُمَّ أَهْدَيْتُهُمَا إِلَى الْمَلِكَةِ؛ فَفَرِحَتْ بِهِمَا وَوَضَعَتْهُمَا فِي خِزَانَتِهَا، بَعْدَ أَنْ شَكَرْتُ لِي أَنْ أَهْدَيْتُ إِلَيْهَا هَاتَيْنِ الطَّرْفَتَيْنِ النَّمِيَّتَيْنِ.

وَأذْكَرُ أَنَّهَا طَلَبَتْ إِلَيَّ — ذَاتَ يَوْمٍ — أَنْ أَجْلِسَ عَلَى أَحَدِهِمَا، فَأَعْتَذَرْتُ لَهَا قَائِلًا: «لَنْ تَصِلَ بِي الْجُرْأَةُ وَسَوْءُ الأَدَبِ إِلَى حَدِّ أَنْ أَجْلِسَ عَلَى هَذِهِ الشَّعْرَاتِ المُحَرَّمَةِ الَّتِي رَزَيْتُ — مِنْ قَبْلُ — رَأْسَ الْمَلِكَةِ الجَلِيلِ.»



وبعد أيام صنعتُ من شعرها كَيْسًا جميلًا طوله ذراعان، وطَرَزْتُهُ بِاسْمِهَا بِحُرُوفٍ مِنَ الذَّهَبِ. ثم اسْتَأذَنْتُهَا فِي إِهْدَائِهِ إِلَى الْحَاضِنَةِ؛ فَأَذِنَتْ لِي فِي ذَلِكَ، وَهِيَ مَسْرُورَةٌ بِإِخْلَاصِي، وَحُسْنِ وَفَائِي لِهَذِهِ الْحَاضِنَةِ الْوَفِيَّةِ.

### (٣) مُوسِيقَى الْعَمَالِقَةِ

وكان لِمَلِكِ «بُرْبُذَنْجَاجٍ» شَغْفٌ شَدِيدٌ بِالْمُوسِيقَى. وقد شَهِدْتُ كَثِيرًا مِنَ الْحَفَلَاتِ الْمُوسِيقِيَّةِ الَّتِي أَقَامَهَا. وكنْتُ أَشْهَدُ تِلْكَ الْحَفَلَاتِ — وَأَنَا فِي عُلْبَتِي — وَلَكِنَّ مُوسِيقَاهُمْ كانت تُرْجِعُنِي أَشَدَّ الْإِزْجَاجِ، لِأَنَّ أَصْوَاتَهَا شَدِيدَةٌ الْإِزْتِفَاعِ.

ولم أكنُ أَستطِيعُ تَمْيِيزَ النِّغَمَاتِ بَيْنَ هَذَا الصَّحْبِ — وَهِيَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ أُذُنِي — وَلَمْ أَطِقْ صَبْرًا عَلَى سَمَاعِ الطُّبُولِ.

فقد كنتُ أَسمَعُ لها دَوِيًّا هَائِلًا مُزْعَجًا، ولم يكنُ في قدرتي أَنْ أَحْتَمِلَ أَصْوَاتَ أَبْوَاقِهِمُ الْمُفْرِعَةَ، فَاسْتَأذَنْتُ الْمَلِكَ أَنْ أَكُونَ فِي عُلْبَتِي عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ مِنَ الْمُوسِيقَى، فَكُنْتُ أَقْفُلُ عَلَيَّ بَابَ عُلْبَتِي وَنَافِذَتَيْهَا. وَأُسَدِلُ أَسْتَارَهَا، فَيَخْفُ الصَّوْتُ وَالضُّوْضَاءُ، وَبِذَلِكَ يَتَسَنَّى لِي التَّمْيِيزُ بَيْنَ أَنْغَامِهَا الْمُخْتَلِفَةِ.

وكنْتُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ بِالْمُوسِيقَى؛ فَقَدْ تَعَلَّمْتُ — فِي حَدَائِثِي — الْإِيقَاعَ عَلَى الْمَعَازِفِ. وَرَأَيْتُ فِي غُرْفَةِ الْحَاضِنَةِ مِعْزَفًا تَتَعَلَّمُ الْعَزْفَ عَلَيْهِ، وَكانَ أَحَدُ مُدَرِّسِي الْمُوسِيقَى يَتَعَهَّدُهَا، وَيُخَصِّصُ لِتَعْلِيمِهَا دَرَسِينَ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ.



وقد عنَّ لي أن أعزفَ لَحْنًا مُوسِيقِيًّا أَمَامَ جَلالَتِي الْمَلِكِ وَالْمَلِكَةِ، ولكنَّ ذلكَ لم يكنْ بالأمرِ اليَسِيرِ الهَيِّنِ؛ فقد كانَ طوُلُ كلِّ دَسْتانٍ من الدَّساتينِ سِتِّينَ قَدَمًا، وعَرَضُهُ ثلاثونَ قَدَمًا، وكنْتُ — إذا بَسَطْتُ ذِرَاعِي كلَّ البَسْطِ — لا أَسْتَطِيعُ أنْ أَلْمَسَ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسَةِ دَساتينَ، وكنْتُ — إلى ذلكَ — لا أَسْتَطِيعُ أنْ أُحْرِكَ الدَّسْتانَ بِإِصْبِعِي؛ لأنَّ إخراجَ النُّغْمَةِ المُوسِيقِيَّةِ على هذا الدَّسْتانِ الضَّخْمِ العَظِيمِ يُكَلِّفُنِي أنْ أُضْرِبَ عليه بِجُمُعِ يَدَيَّ ضَرْبَةً شَدِيدَةً.

وبعدَ فَكَّرِ طَوِيلٍ اهْتَدَيْتُ إلى طَريقَةٍ نَاجِحَةٍ؛ فأَحْضَرْتُ عَصَوَيْنِ — في مِثْلِ ضَخَامَةِ عَصِيئَتِنا المُعْتادَةِ — ثمَّ عَشَيْتُ طَرَفَيْهِما بِجِلْدِ فَأْرَةٍ، حتَّى يَتَسَنَّى لِي أنْ أعزِفَ بهما على الدَّساتينِ. ودَعَوْتُ المَلِكَ وَالْمَلِكَةَ، بعدَ أنْ أَتَيْتُ بِمَقْعَدِ طَوِيلٍ؛ فأَدْنَيْتُهُ مِنَ الدَّساتينِ، ثمَّ وَقَفْتُ عليه، وظَلَلْتُ أَجْرِي — في رِشاقَةٍ وَسُرْعَةٍ — على ذلكَ المَقْعَدِ المُسْتَطِيلِ، وأنا أدُقُّ الدَّساتينَ بِعَصَوَيَّ دَقًّا شَدِيدًا بِكلِّ قَوَّتِي، حتَّى أَتَمَمْتُ عَزْفَ لَحْنِ مُوسِيقِيٍّ رَائعٍ، أَمَامَ

الْمَلِكِينَ (الْمَلِكِ وَالْمَلِكَةِ). وقد أُعْجِبَا بِهَذَا اللَّحْنِ الَّذِي كَلَّفَنِي جُهْدًا مُضْنِيًّا، وَإِنِّي أُؤَكِّدُ لِلْقَارِئِ أَنَّي لَمْ أَتَكَبَّدْ فِي حَيَاتِي كُلِّهَا — مِنْ الْجُهْدِ وَالْعَنَاءِ — مِثْلَ مَا تَكَبَّدْتُهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

#### (٤) بَيْنَ «جِلْفَر» وَمَلِكِ «بُرْبُدِنَجَا»

عَرَفْتُ الْمَلِكَ — كَمَا أَسْلَفْتُ — وَاسِعَ الْعِلْمِ، مَوْفُورَ الذِّكَا، كَمَا عَرَفْتُهُ طُلْعَةً، مُوَلَعًا بِتَقْصِي الْأَخْبَارِ، وَكَانَ ذَلِكَ كَثِيرًا مَا يَدْفَعُهُ إِلَى اسْتِدْعَائِي إِلَيْهِ، وَالتَّحَدُّثِ مَعِي. وَكُنْتُ أُحْمَلُ إِلَيْهِ فِي عُلْبَتِي، ثُمَّ أُوضَعُ عَلَى الْمُنْضَدَةِ — حَيْثُ أُخْرَجُ مِنَ الْعُلْبَةِ، فَأَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيٍّ فَوْقَ الْمُنْضَدَةِ بِحَيْثُ أَكُونُ مِنْهُ وَجْهًا إِلَى وَجْهِهِ — ثُمَّ نَتَّجَادِبُ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ.



وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ تَدَاوَلْنَا الْقَوْلَ، وَشَجَّعَنِي مَا رَأَيْتُهُ فِيهِ مِنْ رَجَاحَةِ عَقْلِهِ عَلَى أَنْ أُكَاشِفَهُ بِمَا فِي نَفْسِي، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ احْتِقَارَهُ لِأَهْلِ أَوْرُوبَا وَغَيْرِهَا مِنْ قَارَاتِ الْعَالَمِ لَا يَنْفِقُ — كَمَا يَبْدُو لِي — مَعَ ذَلِكَ الْعَقْلِ الرَّاجِحِ الَّذِي يَمْتَازُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمُلُوكِ. وَمَا أُجَدِّرُنِي أَنْ أُكَاشِفَهُ بِمَا أَعْتَقِدُهُ صَوَابًا، فَإِنِّي أَرَى أَنَّ رَجَاحَةَ الْعَقْلِ لَيْسَ لَهَا أَيَّةُ صِلَةٍ بِضَخَامَةِ الْأَجْسَامِ وَكِبَرِهَا. وَقَدْ أَقْنَعْتَنَا الْمُلَاحَظَةُ وَالتَّجَارِبُ — فِي بِلَادِنَا — بِعَكْسِ مَا يَعْتَقِدُهُ؛ فَقَدْ طَلَمَّا رَأَيْنَا أَنَّ أَطْوَلَ النَّاسِ قَامَةً لَيْسَ أَوْفَرَهُمْ عَقْلًا، وَكَثِيرًا مَا رَأَيْنَا

مَنْ طَوَالَ النَّاسِ مَنْ أَصْبَحَ مَضْرِبَ الْمَثَلِ فِي الْحَمَاقَةِ وَالْعَبَاوَةِ. وَلَيْسَ ذَلِكَ مَقْصُورًا عَلَى الْإِنْسَانِ وَحْدَهُ، بَلْ يَشْرِكُهُ فِيهِ بَعْضُ الْحَيَوَانِ. وَقَدْ اِمْتَارَتِ النَّحْلَةُ كَمَا اِمْتَارَتِ النَّمْلَةُ، عَلَى غَيْرِهِمَا مِنَ الْحَيَوَانِ بَضْرُوبِ سَتَى مِنَ الْمَهَارَةِ وَالذِّكَاةِ يَدَهْسُ لَهَا الْمُتَامِلُ، فَإِذَا كُنْتُ — كَمَا يِرَانِي — ضَيِّيلَ الْجِسْمِ، فَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّنِي ضَعِيفُ الْفِكْرِ؛ فَقَدْ أَكُونُ قَادِرًا عَلَى أَدَاءِ كَثِيرٍ مِنْ جَلَائِلِ الْأَعْمَالِ!

وَكَانَ الْمَلِكُ يُصْغِي إِلَى حَدِيثِي بَانْتِبَاهٍ شَدِيدٍ؛ فَاسْتَصَوَّبَ مَا قُلْتُهُ لَهُ، وَاقْتَنَعَ بِصِحَّتِهِ، وَبَدَأَ يَنْظُرُ إِلَيَّ — مِنْذُ هَذِهِ اللَّحْظَةِ — نَظْرَةَ احْتِرَامٍ وَتَقْدِيرٍ، وَأَكْبَرَ عَقْلِي، فَلَمْ يَعْذُ بِقَيْسِهِ إِلَى قَامَتِي كَمَا كَانَ يَفْعَلُ مِنْ قَبْلُ.

### (٥) حَدِيثٌ عَنِ الْوَطَنِ

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَثَرِ ذَلِكَ أَنَّ أَمْرِي أَنْ أَذْكَرَ لَهُ بَيَانًا دَقِيقًا عَنْ حُكُومَةِ بِلَادِي، لِيَقْبَسَ مَا يِرَاهُ مِنْ تَقَالِيدٍ صَالِحَةٍ، وَمَزَايَا نَافِعَةٍ.

وَمَثَلٌ لِنَفْسِكَ — أَيُّهَا الْفَارِيُّ الْعَزِيزُ — مَا كُنْتُ أَشْعُرُ بِهِ حِينَ طَلَبَ إِلَيَّ أَنْ أَتَحَدَّثَ عَنْ وَطَنِي الْعَزِيزِ! لَوِدِدْتُ — حِينَئِذٍ — أَنْ تَكُونَ لِي عَبْقَرِيَّةً «دِيمُسْتِينَ» وَ«شَيْشُرُونَ»، وَرَوْعَةً بَيَانِهِمَا؛ لِأَنَّ وَطَنِي الْعَزِيزَ بَعْضُ حَقِّهِ — مِنَ الْوَصْفِ وَالتَّصْوِيرِ — حَتَّى أَتْرُكَ فِي نَفْسِ الْمَلِكِ أَسْمَى فِكْرَةً عَنْهُ.

### (٦) دَارُ النِّيَابَةِ

وَقَدْ بَدَأْتُ حَدِيثِي بِالْكَلامِ عَنْ مَوْقِعِ بِلَادِي الْجُغْرَافِيِّ، وَذَكَرْتُ لَهُ أَنَّ بِلَادَنَا تَتَأَلَّفُ مِنْ جَزِيرَتَيْنِ تَحْوِيَانِ ثَلَاثَ مَمَالِكَ قَوِيَّةٍ، يَحْكُمُهَا مَلِكٌ وَاحِدٌ، وَأَنَّ لَنَا — إِلَى ذَلِكَ — مُسْتَعْمَرَاتٍ فِي خَارِجِ بِلَادِنَا. ثُمَّ حَدَّثْتُهُ عَنْ خُصْبِ أَرْضِنَا، وَعَنْ أَجْوَاهِهَا وَأَهْوِيَّاتِهَا، وَوَصَفْتُ لَهُ دَارَ النِّيَابَةِ عِنْدَنَا، وَكَيْفَ تَتَأَلَّفُ مِنْ مَجْلِسَيْنِ، أَحَدُهُمَا نَطْلُقُ عَلَيْهِ اسْمَ «مَجْلِسِ الْأَعْيَانِ» وَالثَّانِي «مَجْلِسِ الْعُمُومِ»، وَأَنَّ الْمَجْلِسَ الْأَوَّلَ يَضُمُّ سَرَاةَ الْبِلَادِ وَنُبَلَاءَهَا وَأَشْرَافَهَا الَّذِينَ نَشَأُوا مِنْ أَعْرَقِ الْأَسْرِ الْكَرِيمَةِ حَسَبًا وَأَشْرَفَهَا نَسَبًا، بَعْدَ أَنْ يَأْخُذُوا بِأَوْفَرِ قِسْطٍ مِنَ التَّقَافَةِ وَالتَّرْبِيَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالحَرْبِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ، حَتَّى يَنْضَجَ عَقْلُهُمْ وَتَسْتَقِيمَ فِطْرَتُهُمْ، وَيُضْبِحُوا أَهْلًا لِتَمَثِيلِ الْبِلَادِ، فَيَكُونُ لَهُمْ نَصِيبٌ فِي إِدَارَةِ الْحُكُومَةِ، وَيَكُونُوا مَوْضِعَ ثِقَةٍ

البلاد التي تُعَدُّهم للاستشارة في أكبر مُعضلاتها، وحلَّ أزماتها، والدِّفاع عن شرفها، ثم تَخْتَارُهُم أعضاءً في مَحَكِمَةِ الْعَدَالَةِ التي لا مُعَقَّبَ لِأَحْكَامِهَا.

وهؤلاء هم فَخْرُ الْبِلَادِ وزِينَتُهَا، وأَبْرُ أبنائها بها، وأَكْرَمُهُم عليها، وهذا الْمَجْلِسُ يَضُمُّ — إلى تلك الصَّفْوَةِ الْمُخْتَارَةِ من سَادَةِ الْبِلَادِ وَحُكَّامِهَا — عددًا كبيرًا من صَفْوَةِ رجالِ الدِّينِ وعلماؤه الْمُمتازينَ، وهؤلاء مَعْبُوثُونَ بِالسَّهَرِ على الْأَخْلَاقِ وَنُصْرَةِ الشَّرِيعَةِ. وهم يَجْمَعُونَ — إلى متانَةِ الْخُلُقِ — سَعَةَ الْاطِّلَاعِ، وَرِجَاحَةَ الْعَقْلِ، وبذلك كانوا أهلاً لهذا الْمَرْكَزِ السَّامِيِّ الذي رَفَعْتُهُمْ إليه الْبِلَادُ.

أما الْمَجْلِسُ الثَّانِي — أعني «مجلس العموم» — فَهُوَ يَتَأَلَّفُ مِنْ أَفْزَادِ الْمُفَكِّرِينَ وَرجالِ الْعَمَلِ الَّذِينَ يَخْتَارُهُم الشَّعْبُ، وَيُولِيهِمْ ثِقَتَهُ، وَيُنَبِّهُهُمْ عَنْهُ، بَعْدَ الَّذِي عَرَفَهُ فِيهِمْ مِنْ الْمَوَاهِبِ السَّامِيَّةِ، وَالْمَزَايَا الْفَرِيدَةِ، وَالْكَفَايَاتِ النَّادِرَةِ، وَالتَّفَانِي فِي نَصْرَةِ الْوَطَنِ، وَهذا الْمَجْلِسُ يَمَثُلُ حِكْمَةَ الشَّعْبِ وَدِرَازَتَهُ.

وذكرت له أَنَّ هَذَيْنِ الْمَجْلِسَيْنِ يُكُونَانِ أَكْبَرَ مَجْلِسِ نِيَابِيٍّ فِي الْعَالَمِ، وَهذا الْمَجْلِسُ — وَعلى رَأْسِهِ جِلالَةُ الْمَلِكِ — يُشْرِفُ على كُلِّ شُئُونِ الْمَمْلَكَةِ، وَيَسُنُّ لَهَا النُّظْمَ التَّشْرِيعِيَّةَ، وَيَقْضِي فِي كُبْرِيَّاتِ الْمَسَائِلِ الْجَوْهَرِيَّةِ التي تَشْغَلُ بِالِالدَّوْلَةِ.

ثم ذكرت له مَحَاكِمَنَا وما تَمْتازُ بِهِ من الْحِرْصِ على الْعَدْلِ، وَالْفَصْلِ فِي مَنَازَعَاتِ الْأَفْرَادِ، وَتَوْحِي النَّزَاهَةِ وَالْإِنْصَافِ فِي الْأَحْكَامِ، وَمَعاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ، وَحِمَايَةُ الْأَبْرِيَاءِ. وَامتدَّحْتُ لَهُ حُسْنَ إِدارَتِنَا الْمَالِيَّةَ، وما يَتَوَخَّاهُ رجالُ الْإِقْتِصَادِ عِنْدَنَا من الْحِكْمَةِ فِي إِنْفَاقِ أَمْوَالِ الدَّوْلَةِ فِي كُلِّ ما يَعودُ عَلَيْهَا بِالْفائِدَةِ وَالخَيْرِ الْعَمِيمِ. وَوصفْتُ لَهُ مَزَايَا رجالِ الْجَيْشِ مِنَ الْجُنُودِ الرِّبِّيَّةِ وَالْبَحْرِيَّةِ، وَمَا يَظْهَرُونَهُ مِنَ الْبَسَالَةِ وَالِاسْتِهانَةِ بِالْمَوْتِ، وَبَدَلِ أَرْواحِهِمْ رَخِيسَةً فِي الدَّوْدِ عن الْوَطَنِ وَحِمَايَتِهِ من غاراتِ الْأَعْدَاءِ، وما اَمْتازُوا بِهِ من الشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ، وَقلتُ لَهُ — فيما قلتُ — إِنَّ شَعْبَنَا يَتَأَلَّفُ من مِلايينِ الرِّجالِ وَشَتَّى الْأَحْزَابِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْأَدْيَانِ الْمُخْتَلِفَةِ. وَحدَّثْتُهُ عن الْعابِنَا وَمَلاهِينَا، وَلَمْ أُغْفَلْ شَيْئًا مِنْ خِصَائِصِنَا وَمَزَايِنَا الْمَشْرِفَةِ. وَخَتَمْتُ حَدِيثِي بِالْإِلْمَامِ بما وَقَع فِي بِلادِنَا من الثَّوراتِ مُنْذُ مائَةِ عامٍ، وَتَوَخَّيْتُ — فِي ذلكَ — الْإِيجازَ وَالِدَقَّةَ وَحُسْنَ الْبَيانِ.



وقد استغرقت هذه المحاضرات خمس جلسات كاملة، كنت أتحدث في كل جلسة منها عدة ساعات. وكان الملك يصغي إلى أقوالي في انتباه ويقظة دائمين، ويكتب خلاصة ما أقول ليناقشه فيما بعد.

### (٧) أسئلة وانتقادات

فلما كان اليوم السادس بدأ الملك يناقشني في كل ما ذكرته له مناقشة دقيقة، وكان قد أعد ملاحظاته وأسئلته، فأضى إليّ بدخلة نفسه، وكاشفني بما يساوره من الشكوك والريب فيما قلته له. ولقد كان — في الحق — دقيقاً في ملاحظاته، قاسياً في أحكامه، ولم يكن من الميسور أن أقنعه بخطأ رأيه وبعده عن الصواب.

### (٨) أعيان الدولة

وإلى القارئ ما قاله لي في حوار طويل: «ما هي الوسائل التي تتبعونها في تثقيف أبناء العظماء والنبلأء؟ وماذا تصنعون بالأسر النبيلة التي يسلمها جدها العاثر إلى التدهور والخراب، وهو أمر — كما تعلم — مألوف كثير الحدوث؟ وأي المزاي تشترون فيمن ترشحوه لمراتب الأعيان؟ وهل تظن أن للملك يدًا في اختيارهم، وأن لأهواء الأمراء أثراً في تعيينهم — بما لديهم من مال ونفوذ — ليخلقوا منهم حزباً قوياً يؤيدهم وينصر سياستهم، ويحقق لهم ما تصبو إليه نفوسهم من أماني وأغراض، وإن عارض ذلك مصلحة الشعب؟ وما هو مبلغ علم هؤلاء الأعيان بقوانين بلادهم؟ ولماذا خصصتموهم بتلك الثقة العظيمة، وتركتهم لهم القول الفصل، وجعلتموهم المرجع الأخير في أهم شؤون الوطن؟ أنظنون أنهم — لغناهم وجاههم — قد خلصت نفوسهم من الشوائب والأغراض؟»

## (٩) رجال الدين

ثم قال: «وماذا ترى في علماء الدين؟ أعتقد أنهم قد وصلوا إلى مراكزهم في دار النبابة بما امتازوا به من علم وفضل، وصلاح وتقوى؟ وهل تظن أن إخلاصهم وقداساتهم وطهارة نفوسهم هي التي أكسبتهم هذا المركز الرفيع؟ وهل تعتقد أنهم خلصوا من الضغائن، وتجردوا من الأهواء والنقائص، ولم يرتكبوا — منذ نشأتهم — شيئاً من جرائم الغش والخداع والخيانة، ولم يتملقوا أحداً من الأمراء والأعيان، ليصلوا بذلك إلى أعلى مناصب الدولة الدينية، حيث يرتقون إلى مجلس الأعيان؟»

## (١٠) انتخاب النواب

ثم سألتني عن مجلس النواب، فقال: «وماذا ترى في المجلس الثاني الذي ذكرته لي؟ أراض أنت عنه وعن طريقة انتخابه؟ أليس من الممكن المحتمل أن يجيء رجل مجهول — وفي يده كيس مملوء ذهباً — فيشتري به أصوات ناخبيه، فيكسب بالذهب ما لا يكسب بالمواهب والمزايا الباهرة، ويفضله ناخبوه على منافسه الكفء الجدير بالنيابة عنهم؟ ولماذا يتهافت مواطنوكم على الانتخاب ويتناحرون في سبيله، لولا ثقتهم بأنهم — بعد أن يصبِحوا نواباً — سيعوضون من كل ما خسروه من المال في معركة الانتخاب؟ ولا شك أنهم سيتناسون في سبيل ذلك مصالح البلاد، تقرباً إلى ذوي النفوذ وأجابه من الأمراء والأعيان ومن إليهم؟»

وقد انساق في تعداد هذه الملاحظات القاسية وأمثالها، وأندفع يحمل — بلا روية — على نطمنا وتقاليدينا حملات قاسية، وليس من الحزم ولا من الخير أن أذكرها في هذا الكتاب.

## (١١) دور القضاء

ثم انتقل إلى محاكمنا فانتقدتها، وسألني في شأنها، وكم تستغرق من الوقت في درس القضية والحكم فيها؟ وكم تبلغ نفقات الدفاع؟ وكيف يقبل المحامون أن يدافعوا عن قضايا خاسرة يعتقدون أنها لا تتفق هي والحقيقة؟ وهل تتأثر هذه المحاكم في أحكامها

بِحَرْبٍ بَعَيْنِهِ؟ أَوْ تَخَضَّعَ لِرَأْيِ عَظِيمٍ مِنْ ذَوِي النُّفُوزِ وَالْجَاهِ؟ وَهَلْ يَحْتَكِمُ الْقَضَاةُ إِلَى نُصُوصِ الْقَانُونِ وَحَدِّهَا؟ أَوْ يَتَأَوَّلُونَ فِيهَا وَفَقَّ مَا يَرَوْنَهُ مِنْ شَتَّى ضُرُوبِ الشَّرْحِ وَالتَّأْوِيلِ؟ وَهَلْ تَنْفَقُ أَحْكَامُ الْمَحَاكِمِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي قَضِيَّةٍ بَعَيْنِهَا، أَوْ تَتَنَاقَضُ فِي أَحْكَامِهَا، لِاخْتِلَافِ آرَاءِ الْقَضَاةِ، وَتَبَايُنِ الشُّرُوحِ وَالتَّأْوِيلَاتِ الْكَثِيرَةِ لِنُصُوصِ الْقَانُونِ؟



وقد كان في وُسْعِي أَنْ أُفِيضَ فِي الْكَلَامِ عَنِ الْمَحَاكِمِ وَأُصَحِّحَ آرَاءَهُ فِيهَا؛ فَقَدْ خَبَرْتُهَا فِي قَضِيَّةٍ كَسَبْتُهَا — بَعْدَ زَمَنِ طَوِيلٍ — وَقَضَّتْ لِي الْمَحْكَمَةُ بِحَقِّي، وَبِمَا تَكَبَّدْتُهُ فِي سَبِيلِ الْحُصُولِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ، بَعْدَ أَنْ أَشْرَفْتُ عَلَى الْخُرَابِ وَالْإِفْلَاسِ، وَلَكِنِّي لَمْ أَرْ فَائِدَةً فِي مَنَاقَشَتِهِ وَتَصْحِيحِ آرَائِهِ، بَعْدَ أَنْ وَجَدْتُ إِقْنَاعَهُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ ....

## (١٢) أَمْوَالُ الدَّوْلَةِ

ثم انتقل إلى سُؤالي عن إدارة المَالِيَّةِ، فقال: «إِنَّكَ — فيما يَبْدُو لي — قد أخطأت في حسابك، فإنك لم تقدرِ الصَّرَائِبَ بِأَكْثَرِ مِنْ خَمْسَةِ مِلايينِ أَوْ سِتِّهِ، على حين أنك تذكرُ لي أَنَّ ما تُنْفِقُهُ الدَّوْلَةُ يتجاوزُ بكثيرٍ دَخْلَها الذي ذكرته لي؟ ولستُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُدْرِكَ كَيْفَ

تُنْفَقُ الدولة كُلَّ دَخْلِهَا، ثم تتخطى ذلك إلى الاستدانة من غيرها، كما يفعل الرجل المبدّر سواءً بسواء؟

ثم خبّرني — أيها العزيز — مَنْ هم دائنوكم؟ وكيف تُؤدّون لهم ديونهم بعد أن خرجتم عن جادة القصد إلى الإسراف، وبعد أن تمرّدتم على قوانين الطبيعة، وتخطّيتم سُبُل الحكمة والسداد؟»

### (١٣) نفقات الجيش

ثم أبدى لي دهشته مما سمعته مني في شأن الأموال الطائلة التي أنفقناها في الحروب، فقال: «لا شك أنكم مشاغبون تنزعون إلى الشر، أو أن جيرانكم أشرار خبثاء! ثم خبّرني: ما أنتم ومنازعات البلاد الأجنبية ومشكلاتها، وهي لا تمت إليكم بنسب؟ لعلكم تريدون أن يكون لكم — في خارج بلادكم — صلات أخرى غير صلات التجارة؟ وما أحسبكم إلا طامعين في الفتح والغزو؟ وما كان أجدركم أن توجهوا جهودكم كلها لإسعاد بلادكم، والدفاع عن مرافئكم، من غير أن تتطلع نفوسكم إلى ما في أيدي غيركم من الأمم.

ثم خبّرني — أيها الصديق — بعد ذلك: ما فائدة هذا الجيش الكبير الذي تُنفقون عليه في وقت السلم، ما دام شعبكم حراً راضياً عن حكومته ونظمه وتقاليده؟ وأي نفع لهذا الجيش؟ ولماذا غنيتم به؟ وعمّن يدافع؟ وأي الأمم يحارب؟ أليس من الخير أن يدافع سكان كل بيت عن بيتهم، وأن تشارك الأسرة ومن في البيت من أولاد وخدم في حماية أنفسهم، فيكون ذلك أجدى عليهم، وأعود بالفائدة من أن يكفوا حمايتهم والدفاع عنهم إلى جماعة من اللصوص والأشرار، يُولّفون من حنالة الشعب ودهمائه، ويتقاضون على حمايتهم أجراً زهيداً يُغريهم بالرشوة والفساد، إذ يرون أنّ في وسعهم أن يذبّحوهم ويربّحو من ذلك مالا كثيراً يُربي على ما يأخذونه من الأجر مائة مرة؟»

## (١٤) ملاحظات عامة

ثم ناقشني فيما ذكرته له من اختلاف أحزاب الشعب ونزعاته السياسية، وتعدد أديانه ومملكه ونحله، وانتقل من ذلك إلى ما ذكرته له من أساليب اللهو التي يقضي سراتنا وأعياننا كثيراً من أوقاتهم فيها، فقال: «خبرني، في أية سن تبدأ ألعاب المراهنة؟ وفي أية سن يقلعون عنها؟ وكم ساعة من الزمن تستغرق منهم كل يوم؟ وإلى أي مدى تؤثر في ثروتهم، وتبدد من أموالهم، وتدفع بهم إلى الفاقة — بخطى سريعة — وتسوقهم إلى ارتكاب الدنيا والآثام؟ ألسنت ترى أن كثيراً من الأدياء السفلة الذين لا عمل لهم، والذين فرغوا من مشكلات الحياة، ورددوا أوقاتهم لهذه الألعاب، يستطيعون أن يغبنوهم فيها، فيجنوا بمهارتهم وحذقهم من هؤلاء الأغرار ثروة عظيمة تسلكهم في عداد الأعيان والنبلاء، وتجعلهم يتحكمون في سادتهم بعد أن يشرفوا على الخراب والإفلاس؟ ألا ترى أن من الحكمة وأصالة الرأي أن تقضي الدولة على مثل هذا اللهو المذري؟»

ثم انتقل إلى مناقشتي فيما سمعته من الحوادث المفزعة في تاريخ القرن الماضي، ودهش أشد الدهشة من تلك الثورات والفتن والمؤامرات، وما انتهت إليه من قتل وتدمير، ونفي وتعذيب، وقال لي: «إنها دليل على اللؤم، والقسوة والحقد، والطمع، والجنون!»

## (١٥) خاتمة المناقشة

وفي اليوم التالي أجمل جلالته ما سمعته مني، وما قاله لي، ووازن بين أسئلته وأجوبتي، وكان ممسكاً بي بين يديه وهو يداعبني ويلاطفني. ثم ختم محاضرتَه بهذه الكلمات القارعة التي لا أنساها ما حييت، ولا أنسى قسوة لهجته وهو ينطقُ بها، إذ قال: «لقد مدحتَ وطنك — يا عزيزي — مدحاً مستفيضاً، وفضلته على كل البلاد، فدللتني على أن الجهل والكسل والرذيلة يمكن أن تعدد — في بعض البلاد — من المزايا الباهرة النادرة التي يمتاز بها السراة والحكام، ورأيت أن القوانين قد انتقصت، وتاول رجالكم في تفسيرها ما شاء لهم الهوى والفائدة واللباقة، حتى أفسدوها وأخرجوها عما وضعت له، وقد علمت أن في بلادكم نظاماً ربما توخى به واضعه غرضاً نبيلاً، ولكن فساد النفوس قد شوهه كل التشويه. ولقد أيقنت — بما سمعتُ منك — أن الفضيلة عندكم لا قيمة

لها؛ فإنني لم أجد مزيةً واحدةً من مزايا الفضل ترفع صاحبها إلى أية مرتبة من مراتب الرفعة والشرف؛ فالنواب لم يصلوا إلى مكاتبتهم من النياية بإخلاصهم وفضيلتهم، ورجال الدين لم يرتقوا بوزعهم وزهدهم وعلمهم، والجنود لم يسموا بشجاعتهم وإقدامهم، والقضاة لم يدركوا مناصبهم بجدارتهم وعدلهم، والشيوخ لم ينالوا مكاتبتهم بما أشربته نفوسهم من حب الوطن، ورجال الحكومة لم يظفروا بمناصبهم بما أوتوه من دربة وحكمة وتجربة!»

ثم أنهى حديثه قائلاً: «أما أنت — يا عزيزي — فقد قضيت أكثر حياتك في التجوال والأسفار؛ فلم تسر إليك — فيما أظن — عدوى هذه النقائص والرذائل التي انغمس فيها أبناء وطنك. على أنني — بعد ما سمعته من أقوالك، ومن إجاباتك عن أسئلتني — أستطيع أن أقرر لك متنبئاً مما أقول: أن قومك جديرون أن يوصفوا بأنهم أخطأ أنواع الحشرات الحقيرة التي تدب على وجه الأرض!»



## الفصل السادس

### (١) اعتراضاتُ المَلِكِ

يَأْبَى عَلَيَّ إِخْلَاصِي لِلْحَقِيقَةِ أَنْ أَكْتُمَ مَا جَرَى بَيْنِي وَبَيْنَ جَلَالَةِ الْمَلِكِ مِنَ الْحَدِيثِ، كَمَا يَأْبَى عَلَيَّ إِخْلَاصِي لَوْطَنِي أَنْ أَرَاهُ يَحْقُرُهُ وَيُزْرِي بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ أُدَافِعَ عَنْ شَرَفِهِ.



لقد أُجِبْتُ عن أسئلته بمهارة، ووصفتُ له كلَّ شيءٍ في بلادي بأحسنٍ ما يصفُهُ به مُجِبُّ لوطنِهِ، وتلمَّستُ من مَزاياه وحَسَنَاتِهِ كلَّ ما اسْتَطَعْتُ. ولم يكنْ دِفاعي عن وِطَنِي لِيَمْنَعَنِي الإِخْلَاصَ لِلْحَقِيقَةِ، والإِضْغَاءَ إلى كلِّ رأيٍ صحيحٍ وِاضِحِ الْمَحَبَّةِ. وعلى هذا لم أَشَأْ أَنْ أُغْضِيَ على مناقشاتِ المَلِكِ، وتَحَيَّنْتُ الفُرْصَ للردِّ على أقوالِهِ، وصبرتُ مُرْتَقِبًا يومًا آخرَ يَكُونُ أَكْثَرَ مِلاَمَةً لِإِزَالَةِ ما عَلِقَ بِنَفْسِهِ مِنَ الأوهامِ والشُّكوكِ، وقد بذلتُ جُهْدِي في إقناعِ ذلكِ المَلِكِ الذَّكِيِّ الحَصِيفِ، ولكنني — لسوءِ حظِّي — لم أشعُرْ بشيءٍ مِنَ النِّجَاحِ، بلْ أَحْقَقْتُ في غَرَضِي كلَّ الإخفاقِ. على أَنَّي التمسْتُ لَهُ شيئًا مِنَ العُذْرِ، لأنَّهُ إنما يَعِيشُ في عَزْلَةٍ تامَّةٍ عن العالَمِ، فهو لذلكِ يَجْهَلُ — بطبيعتهِ — أخلاقَ



الأُمم الأُخرى وعاداتهم وتقاليدهم. وكثيراً ما ينشأ عن العزلة والجهل بتقاليد الشعوب الخطأ في الأحكام، والاستسلام إلى الخيال والوهم.  
ومن البلاهة أن نأخذ كل اعتراضات هذا الملك وانتقاداته وآرائه في فهم الفضيلة والرذيلة أسساً نبني عليها نظمنا وتقاليدينا؛ فهي آراء بعيدة عن التجربة والتحصيص.  
والحق أن بين تفكيرنا وتفكيره هوةً سحيقةً، فهو — بطبيعة نشأته وعزلاته — يرى في كثير من قضايا الاجتماع والسياسة عكس ما نرى ....

## (٢) اختراع البارود

ولقد أردت أن أكسب عطفه، وأتحبب إليه؛ فذكرت له مُحترعاً ظفرنا به — منذ أربعة قرون — وقلت له إنه مسحوق أسود تلهبه شرارة صغيرة في لحظة، فينسف — إذا شئت — جبلاً راسخةً، وتسمع لفرقعة دويًا أشد من جلبة الرعود، وذكرت له أن من الميسور أن يضع شيئاً من هذا المسحوق في أنبوبة — صغيرة أو كبيرة — من البرنز أو الحديد، فينسف ما أمامه، ولا يصد قوته شيء بالغ ما بلغت صلابته. وذكرت له أن بعض هذه القذائف فتكت بالجيوش الكثيرة العدد، وتك أقوى الحصون، وتنسف أضخم البروج، وتغرق أكبر السفن، وتدمر أعظم المدن، فإذا وضع هذا المسحوق في كرة من الحديد، وقذف بها الأعداء فتكت بهم فتكاً ذريعاً، ودمرت مساكنهم وتناثرت شظاياها — في كل ناحية — فأهلكت كل من أصابته، وسحقت كل ما يعترضها في طريقها. وقد ذكرت له أنني جدٌ خبير بأسرار هذا المسحوق وطريقة تركيبه، وأن ذلك لن يكلفني أيّ عناء؛ لأنه يتألف من مواد معروفة يسهل العثور عليها في كل مكان، وهي لا تكلف من يشتريها إلا ثمنًا قليلاً، فإذا أذن لي جلالته، أدعت له أسرار هذا الاختراع، ومتى عرف جلالته ذلك السر أصبح قادراً على تدمير أقوى المدن، وأمنع الحصون، وإخماد أية ثورة في زمن يسير، والتغلب على الأعداء من غير مقاومة. وختمت كلامي بقولي: «وإني مستعد لتقديم هذه الهدية الصغيرة إلى جلالتك، اعترافاً مني بما غمرتني به من الرعاية والعطف العظيمين.»

### (٣) آراء المَلِكِ

وما سَمِعَ المَلِكُ هذا الحديثَ، حتى بَدَتْ على أساريه أَمَارَاتُ الدَّهْشَةِ والعَجَبِ مما سَمِعَهُ من أسرارِ هذا المَسْحُوقِ المَدْمَرِ. وزادَ دَهْشَتَهُ أَنَّهُ لم يَكُنْ يدورُ بِخَلْدِهِ أَنَّ حَشْرَةَ أَدَمِيَّةً — غايَةً في العَجْزِ والضعفِ والحقارةِ — يَمكُنُ أنْ تَحْتَيِلَ مِثْلَ هذه المَفْرَعَاتِ العَظِيمَةِ، فَتَحْدُثُ عن دِكِّ الحُصُونِ وَنَسْفِ المَدِينِ — في سُهولَةٍ وطُمأنينَةٍ وثِقَةٍ إلى ما تقولُ — ولا يُزَعِّجُهَا أَنَّ تَذَكَّرَ التدميرَ وتخریبَ البلادِ والفتكَ بأهلِهَا، لأنها تَرى — في كلِّ هذه الشَّنَعِ والمذابِحِ التي تَنجُمُ عن هذا الإختراعِ المُهَلِكِ — شيئاً تافهاً لا قيمةَ له ولا خطرَ.

ثم قالَ لِی المَلِكُ: «لستُ أَشكُّ في أَنَّ مَخترِعَ هذا المَسْحُوقِ المُهَلِكِ هو رُوحُ شَرِيْرٍ خبيثٌ لا ضميرَ له ولا دينَ، ولا أرتابُ في أَنَّ الشَّيْطَانَ عدوُّ اللهِ هو الَّذي ألهمَهُ أَنَّ يَخترِعَ هذه المُهَلِكاتِ.»

### (٤) مَحَبَّةُ الخَيْرِ

ثم قالَ: «إنني لا أَطربُ إلا لِلاختراعاتِ النَّافِعَةِ التي تُفيدُ الجِنْسَ البَشَرِيَّ، سواءً أَذَلَّتْ قُوَى الطَّبِيعَةِ وَسَخَّرَتْهَا لِخَيْرِ البَشَرِ، أمْ عَمِلَتْ على رُقْيَى الفنونِ وتقدُّمِهَا، وإنِّي لأوثُرُ أَنَّ أَفقدَ مُلْكِي وَأَنْزلَ عن عَرشِي، على أَنَّ أَلجأُ إلى استعمالِ هذه الاختراعاتِ المُهَلِكَةِ المَشْتُوْمَةِ، فحذارِ حذارِ أَنَّ يُكشَفَ سَرُّ هذا الاختراعِ لأحدٍ مِنَ الشَّعْبِ، فَإِنَّكَ إنْ فَعَلْتَ فليس لك عندي من جزاءٍ — على إِذاعةِ هذا السَّرِّ — إلا القَتْلُ.»

ولقد عَجِبْتُ أَشَدَّ العَجَبِ من إِصرارِهِ، وعدمِ تقديرِهِ فوائدَ هذا الإختراعِ الَّذي أَمكَّننا بِهِ التَّعَلُّبُ على خُصومِنا بِأيسرِ عَناءٍ. بَيَدُ أَنَّ هذا المَلِكَ قد تَحَلَّى بِكلِّ الصِّفَاتِ المَحمودَةِ، وَتَشَبَّعَتْ نَفْسُهُ بِالخَيْرِ والرحمةِ، فأحَبَّهُ شَعْبُهُ، وَأعجَبَ بِفضائلِهِ، وَأشادَ بِمزاياه، وأكَبَرَ لَهُ نِكاةً وَحِصافَةً وَحِكمَتَهُ وَسَعَةَ عِلْمِهِ. وكانَ هذا المَلِكُ عادِلاً مُحِبًّا لِتقدُّمِ شِعبِهِ وَرَفَعَتِهِ، فَقدَسَتْهُ الرِعيَةُ كُلُّ التَّقديسِ، ولم يَكُنْ مِثْلُ هذا المَلِكِ لَيَسرُعُ إلى انتهازِ الفُرْصَةِ السانِحَةِ لِإرهاقِ مَنْ يخالِفُهُ أو يَتَوَرَّعُ عَلَيْهِ، لأنَّهُ لم يَكُنْ يَعيْنِهِ أَنَّ يَصْبِحَ سَيِّداً مُستَبَدًّا مُطلَقَ التَّصَرُّفِ والسُّلْطَانِ في حَيَاةِ رِعيَّتِهِ وَحرِّيَّتِهِمْ، وَلَكِنْ يَعيْنِهِ أَنَّ يَنفَعَهُمْ وَيَجلبُ لَهُمُ السَّعادةَ والرِّفاةَ والخَيْرَ العَميمَ، وَإِذا كانَ قد رَفَضَ الإِصْغَاءَ إلى نِصيحَتِي فَإِنَّ ذلكَ لا

يَنْتَقِصُ مِنْ فَضْلِهِ وَذِكَايِهِ، وَلَا أَحْسَبُ الْقَارِيَّ يَخْطِئُهُ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ سِيَاسَةَ هَذِهِ الشُّعُوبِ قَائِمَةٌ عَلَى الصَّرَاحَةِ، وَهِيَ لَمْ تُصَيِّحْ — كَمَا هِيَ عِنْدَنَا — فَنَّا يَحْتَاجُ إِلَى طَوْلِ الدَّرْسِ وَالْمِرَانَةِ وَالْخَبْرَةِ ...

ولقد ذكرتُ له ذاتَ يومٍ — في بعضِ حديثي — أن في بلادنا أسفارًا ضخمةً كتبها مؤلفوها عن فنِّ الحُكْمِ، وأسلوبِ سياسةِ الشُّعُوبِ، فاستنتج من ذلك أننا ضعافُ العقولِ، صغارُ الأَحْلَامِ، واعتقدَ أننا أممٌ غارقةٌ في الجَهَالَةِ وَالْهَمَجِيَّةِ، وقال لي: «إنني أحتقرُ الدَّسائِسَ وَالْخِيَانَةَ وَالْجاسوسِيَّةَ في أعمالِ المُلِكِ والدَّوْلَةِ وَالْوِزَارَةِ، كما أحتقرُ أن يلبأَ الحُكَّامُ إلى الأسرارِ الخَفِيَّةِ في أعمالِهِم وأحكامِهِم.»

ولم يستطعَ أن يذركَ ما أعينيه بأسرارِ الدَّوْلَةِ، وما تنطوي عليه من سِيَاسَةٍ، وظنَّ أننا نعني بذلك صغارَ القُضَايَا، والأحكامَ التي لا حَظَرَ لها. ولقد قال لي، فيما قال: «إنَّ الإنسانَ إذا استطاعَ أن يُنبتَ سُنْبُلَتَيْنِ مِنَ القَمْحِ في أرضٍ لا تُنبتُ إلا سُنْبُلَةً واحدةً، أو قدَرَ على إنباتِ عُودَيْنِ مِنَ العُشْبِ في أرضٍ لا تُنبتُ إلا عودًا واحدًا، فهو عندي رجلٌ نافعٌ، جديرٌ بالتَّقْدِيرِ والتَّنْأَةِ، لأنَّه استطاعَ أن يُؤدِّيَ لبلادِهِ وإخوانِهِ خدمةً إنسانيةً عظيمةً، هي أجدى وأعوذُ بالفائدةِ عليهم من كلِّ ما يَعْمَلُهُ كِبَارُ السَّاسَةِ، وأساطينُ السِّيَاسَةِ.»

## (٥) آدابُ العمالقَةِ

أما أدبُ هذا الشَّعبِ، فهو أدبٌ ضَيِّلٌ، وليسَ في لُغَتِهِم مِنَ الألفاظِ إلا ما يدُلُّونَ به على الأخلاقِ والتاريخِ والشَّعْرِ والرياضَةِ، وهم يُجيدونَ هذه العلومَ الأربعةَ إجادَةً تامَّةً. ولا يُعَوِّنونَ بالعلومِ العَقْلِيَّةِ وَالْفَلْسَفيَّةِ وما إلى ذلك، ولا تتجاوزُ حروفُهُم الهجائيَّةَ أربعةً وعشرينَ حرفًا، وقوانينُهُم مُجمَلَةٌ شديدةُ الإيجازِ واضحةُ الأداءِ، يفهمُها كلُّ إنسانٍ بأيسرِ نَظَرٍ وأدنى فِكْرٍ. وهم لا يحتاجونَ إلى شرحِ قانونِهِم، فإن لكلِّ جريمةٍ عقابًا لا يقبلُ تأويلًا ولا فلسفةً، وليسَ يُمَيِّزُهُم نكاءٌ نادرٌ.

أما المطابعُ، فقد اهُتدوا إليها قبلَ عهدِ التاريخِ — كما اهُتدى إليها الصينيونَ — ولكنك لا تجدُ عندهم مَكْتَباتٍ كبيرةً، فإن مَكْتَبَةَ المَلِكِ — وهي أكبرُ مَكْتَبَةٍ في تلكِ البلادِ — لا تحوي أكثرَ من ألفِ سَفْرِ. وهي في خزانةِ طولها ألفُ قدمٍ ومائتا قدمٍ. وقد أدنَ لي في أن أقرأَ منها ما أشاء. وكنتُ إذا أردتُ أن أقرأَ كتابًا، أمرَ جلالتهُ بوضعه على

مائدة كبيرة، فأقفُ فوقَ صَفْحَاتِهِ العَظِيمَةِ، وأمشي عليها ثمانِي حُطُواتٍ أو عَشْرًا — على حسبِ طُولِ سُطُورِهِ — فإذا انتهيتُ من قِراءةِ الصَّفْحَةِ، رفعتها بِكِلْتَا يَدَيَّ لِثِقَلِ حِجْمِهَا، ونُخَانَةِ وِرْقِهَا.



أما أسلوبُهُم في الكتابة فهو واضحٌ سهلٌ، لا تكلفٌ فيه ولا لبسٌ، وهم لا يُعَنَوْنَ بِالِافْتِنَانِ في الأداءِ، ولا يَلَجُّونَ إلى المُتَرادِفَاتِ، ولا يُغَيِّرُونَ أساليبَهُم في التَّعبيرِ، ولا يَزِيدُونَ في كتاباتهم لفظًا واحدًا لا يحتاجُ إليه المعنى. وقد تصفحتُ كثيرًا من كتبِهِم، ولا سيَّما كُتُبَ التَّاريخِ والأخلاقِ، وقرأتُ رسالةً صَغِيرَةً قَدِيمَةً — كانتُ في غِرفةِ الحَاضِنَةِ — عنوانُها: «رسالةٌ في ضعفِ الجِنسِ الإنسانيِّ»، وهذه الرِّسالةُ ذائِعَةٌ مشهورةٌ في تلكِ البلادِ، تُقبَلُ على قِراءتها النِّساءُ وعمامَةُ الشَّعبِ.

## (٦) فصلٌ من كتابٍ

ولقد شاقني أن أقرأ فصلًا من هذا الكتابِ الذي أَلَفَهُ أحدُ هؤلاءِ العَمالِقَةِ في إظهارِ ضَعْفِ الجِنسِ الإنسانيِّ وعجزِهِ؛ فرأيتُ المؤلِّفَ يدلُّ فيهِ على عجزِ الإنسانِ وحقارتِهِ — أمامَ سلطانِ الطَّبِيعَةِ وجَبْرُوتِها، وقوَّةِ الحيواناتِ المُفترِسةِ وبَطْشِها — بأنَّ بعضَ الحَيَواناتِ يَفُوقُه قوَّةً وسرعةً، وبعضُها يَفُوقُه ذكاءً ومهارةً وحُسنَ نِظامِ.

وقد رأيت مؤلف الكتاب يميل إلى الحكم بأن الطبيعة قد فسدت في القرون الأخيرة، وأن العالم سائر إلى الضعف والانحلال؛ لأن قوانين الطبيعة — في زعمه — كانت تقضي بإيجاد الأجناس البشرية القوية، ذات الأجسام الضخمة والقامات المرتفعة، وكان الناس منذ بدء الحياة في القرون الغابرة أقوىاء أصحاء، وكانوا — لقوتهم وصحتهم — آمنين من الأخطار والتغيرات الفجائية التي كثيراً ما أودت بنا لضعفنا وضآلة أجسامنا.

ثم يقول: «أما نحن فغاية في الضعف، وإن حجرًا من الحجر يلقى علينا من أعلى منزل — أو يقذفنا به غلامٌ صغيرٌ — لا يلبث أن يودي بحياتنا، وربما غرق أحدنا — لضآلته — في نهيرٍ». وقد استنتج المؤلف من ذلك الضعف عدة قوانين رآها نافعة للسير في هذه الحياة باعتدالٍ.

## (٧) حَقَارَةُ الْإِنْسَانِ

أما أنا فقد غرقت في بحرٍ من التفكير، وطافت بذهني شتى المعاني والعظمت، حين رأيت جميع الناس ينزعون بطبعهم إلى الشكوى من الطبيعة، ويعزّون إليها أكثر السيئات والعيوب، ويحملون الزمن أوزار ما يتألمون منه.

وذكرت أن هؤلاء العمالقَة — على ما وصلوا إليه، من ضخامة وقوة — لا يزالون يجدون أنفسهم صغارًا ضعافًا، فكيف بأمثالي من بني الإنسان الذين لا يقاسون إلى هؤلاء المرَدَة؟ ورأيت ذلك المؤلف يقول: «إن بني الإنسان ليسوا إلا حشرات ضئيلة على وجه الأرض، وديدانًا لا خطر لها، وليس الإنسان في هذه الدنيا إلا ذرّة حقيرة، غاية في الضعف والهوان».

فامتلت نفسي حزنًا وأسفا حين قرأت هذا الكلام، وقلت لنفسي: «وا أسفا علينا! إذا كان هؤلاء العمالقَة الجبابرة يرون أنفسهم غاية في القماعة والضعف، فكيف بنا ولسنا شيئًا مذکورًا بالقياس إلى هؤلاء المرَدَة؟»

وقد عرّض مؤلف الكتاب للكلام في الكبرياء والرّهو، وأنحى باللائمة على الناس لولوعهم بالأوصاف الفارغة، وتهافتهم على أن يوصفوا بألقاب السمو والعظمة، ورأى أن من المحزن المؤسف أن يفخر إنسانٌ ضعيفٌ — من بني جنسه — بهذه الألقاب، وهو لا

يزيد في طولِه على مائةٍ وخمسينَ قَدَمًا، وأنَّ يَدَّ بطولِه وضخامَتِه، وهو لا يزالُ قَرَمًا ضعيفًا، فقلتُ في نفسي: «إذا صدَّقَ هذا المؤلِّفُ في قولِه، فماذا يقولُ أمرأوتنا وعظماؤنا إذا قرءوا هذا الكلامَ؟ وماذا يصنعون، وهم لا يزيدون — في ارتِفاعِ قاماتهم — على خمسِ أقدامٍ ويضع أصابعَ، ثم تتطَلَّعُ نفوسُهُم إلى ألقابِ السُّموِّ والعظَمَةِ؟ ولستُ أدري لِمَذا لا ينشدون ألقابَ الضَّخامةِ والعَرَضِ والكثافةِ؟ ولعلَّ أحدهم يُجيبُ على اعتراضِ بآن السُّموِّ والعظمةَ خاصانَ بالرُّوحِ لا بالجِسمِ، فإذا صحَّ قولُهُم هذا، فما بالهُم لا يتخَيَّرُونَ لَهُم ألقابًا صريحةً في أداءِ هذه المعاني بجلَاءٍ ووضوحٍ؟ وما بالهُم لا يقولون: «صاحبُ الحكمةِ، وصاحبُ الذِّكاءِ، وصاحبُ التَّبصُّرِ، وصاحبُ الكرمِ، وصاحبُ الطَّيبةِ، وصاحبُ الضَّميرِ» بدلَ قولِهِم: «صاحبُ الرِّياسَةِ، والعظَمَةِ، والفخامةِ» وما إلى تلك.

يجبُ أنْ نعتَرِفَ بأنَّ تلك الألقابَ أجملُ وأشرفُ من هذه، وفيها رِقَّةٌ ولُطْفٌ إذا حُيِّوا بِها مَمَّنْ هُم دونهم مقامًا. أما أنْ يصفُوا أنفُسَهُم بالرِّفَعَةِ والسُّموِّ والعظمةِ، وهم على مِثْلِ ما نرى منْ ضعِفٍ وضالَّةٍ، فذلك تناقضٌ مضحكٌ عجيبٌ!

## (٨) نظرةٌ عامَّةٌ

أما علومُ أولئك العَمالِقَةِ في الطبِّ والجِراحةِ والصَّيدلةِ، فقد برَعوا فيها بمقدارٍ يناسبُ حاجاتِ البلادِ، وأما جيشُهُم فهو مؤلَّفٌ منِ اثْنينِ وثلاثينَ ألفًا منِ الفُرسانِ، وهُم منَ التُّجارِ والفلاحينِ، وقوَّادُهُم منَ النُّبلاءِ والأعيانِ. وهُم لا يتقاضونَ على ذلك أجرًا، فإنَّ كلاً منهم منصرفٌ إلى عملِه، وكلُّ فلاحٍ تحتَ إمرةِ أحدِ الأعيانِ؛ فإذا جدَّ الجِدُّ، جُنِّدَ منهم جيشٌ يبلغُ هذا العددَ.

وقد عَجِبْتُ لِمَذا يُعنى المَلِكُ بتدريبِ هذا الجيشِ على الحربِ وهو آمنٌ من غاراتِ الأعداءِ، ولكنني — بعد أن دَرَسْتُ تاريخَهُم — عَلِمْتُ أن هذا الشعبَ لم يَسَلِّمْ — فيما مضى من الزَّمَنِ — ممَّا أُصيبَ به غيرُه من الشعوبِ الأخرى، أعني الحربَ الأهليةَ، وتنازَعِ الأعيانِ والنُّبلاءِ على الحكمِ، وتطلُّعِ الشَّعبِ إلى الحُرِّيَّةِ، ورغبةِ المَلِكِ في الاستِثْثارِ بالحُكْمِ والسلطانِ.

## جَلْفَر فِي بِلَادِ الْعَمَالِقَةِ

على أن قوانين المملكة الحكيمة، وتقديس الشعب لمليكه القائم قضيًا على هذه الفتنة الداخلية، وأصبحت البلاد في أمان من المنازعات المقلقة والاضطرابات العنيفة.

## الفصل السابع

### (١) ذكريات الوطن

كان يدورُ بخَلدي دائماً شعورٌ خَفِيٌّ، يُوجي إليَّ أنني سأحْصُلُ — في يومٍ من الأيام — على حُرِّيَّتي، وأعودُ إلى وطني، ولم أكن أعرفُ ما هي الوسيلةُ إلى تحقيقِ هذا الحُلْمِ اللذيذِ، ولقد طالما فكَرْتُ في ذلك، فلم أعدُ من تفكيري بطائلٍ، وأخفقتُ في الاهتداءِ إلى تدبيرٍ تلوحُ لي فيه أيةُ بارِقةٍ من بوارِقِ الأملِ في الخلاصِ من تلك البلادِ.

ولقد كنتُ على ثِقَةٍ من انقطاعِ هذه الجِهةِ التي نزلتُها عن بقيةِ العالَمِ، كما كنتُ على يقينٍ من أن أوَّلَ سفينةٍ اقترَبَت من تلك البلادِ، هي سفينتنا التي غرقتُ — فيما أعتقدُ — بالقربِ منها.

وقد أصدرَ الملكُ أمرَه بمراقبةِ أيِّ سفينةٍ تدنو من شواطئِ بلادِهِ، وإحضارِ مَنْ فيها من الناسِ إليه، لعلَّه يعثرُ — من بينهم — على زوجةٍ صالحةٍ لي. أمَّا أنا فقد كنتُ أُوثرُ أن أموتَ على أن أتزوَّجَ في تلك البلادِ، لأنَّسَلُ ذريَّةً من أبنائي، توضعُ في الأفقاصِ كما توضعُ العصافيرُ، ثم تُباعُ بعدئذٍ في أنحاءِ المملكةِ للسَّراةِ والأعيانِ، كما تُباعُ الطُّرفُ والحَيواناتُ الصغيرةُ الغريبةُ! ولقد كانوا — في الحقيقةِ — يعاملونني أحسنَ معاملةٍ، وقد اختاروني نديمًا للملكِ والمملكةِ، وكنتُ في هذه البلادِ بهجةَ الحاشيةِ والسَّراةِ. ولكني كنتُ أشعرُ أن هذه الحفاوةَ كُلَّها لا تُرضي نفسَ رجلٍ يشعُرُ أنه إنسانٌ مستقلٌّ حرٌّ له كرامةٌ، ولم أكن لأُنسى أفلانَ كِبدي وزوجتي بعدَ أن تركتُهُم في بيتي النائي البعيدِ. وكان أكبرُ أمانِي أن أعيشَ في شعبٍ يُماتِلُنِي وأُماتِلُهُ، وأجدَ فيه أصدِقاءً وحُصاءً من



أُنْدَابِي وَأَقْرَانِي، وَأَظْفَرَ بَحْرِيَّتِي كَامِلَةً فِي التَّجْوَالِ — فِي الطَّرِيقِ وَالْحَقُولِ — بِلَا رَهْبَةٍ وَلَا حَذَرٍ. وَلَا كَذَلِكَ كُنْتُ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ الَّتِي ظَلَمْتُ أَتَوَقَّعُ فِيهَا — بَيْنَ لِحْظَةٍ وَأُخْرَى — أَنْ يَسْقِنِي أَحَدُ أَبْنَائِهَا الْعَمَالِقَةَ بِقَدَمِهِ، كَمَا نَسَحَقُ الْحَشْرَةَ الْوَضِيعَةَ الضَّئِيلَةَ، دُونَ أَنْ نَشْعَرَ بِمَكَانِهَا مِنَ الْوُجُودِ!

## (٢) مُزِعَجَاتُ «بُرْبِدُنَجَاجِ»

وَلَقَدْ كَانَ مِنَ الْمَيْسُورِ الْمُحْتَمَلِ أَنْ أَقْضِيَ حَيَاتِي فِي تِلْكَ الْبِلَادِ، لَوْلَا قِمَاءَتِي وَقَصْرُ قَامَتِي، وَمَا جَرَّهُ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنَ الْأَخْطَارِ وَالْمَخَافِ الْوَالَّتِي يَضِيقُ عَنْهَا الْوَصْفُ، وَالَّتِي لَا أُعَدِّدُهَا، بَلْ أَعُدُّ مِنْهَا مَا حَدَثَ لِي ذَاتَ يَوْمٍ مَعَ قَزَمِ الْمَلِكَةِ، قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ عَلَيْهِ غَضَبُهَا وَنَقِمَتُهَا، فَقَدِ التَّقِيْتُ بِهِ فِي حَدِيقَةِ الْقَصْرِ الْمَلِكِيِّ، بِالْقَرَبِ مِنْ شَجَرَةٍ تُفَاحِ صَغِيرَةٍ. وَمَا وَضَعْتَنِي الْحَاضِنَةُ عَلَى الْأَرْضِ، حَتَّى أَقْبَلَ ذَلِكَ الْخَبِيثُ يُحْيِينِي سَاخِرًا مِنْ قَصْرِ قَامَتِي؛ فَقَابَلْتُ سُخْرِيَّتَهُ بِمِثْلِهَا، فَأَسْرَهَا فِي نَفْسِهِ، وَمَا بَعَدَتْ الْحَاضِنَةُ عَنِّي قَلِيلًا حَتَّى انْتَهَزَ الْقَزَمُ الْخَبِيثُ تِلْكَ الْفُرْصَةَ، وَهَزَّ غُصْنًا مِنْ أَغْصَانِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ؛ فَتَنَاطَرَ تُفَاحُهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَسَقَطَتْ عَلَيَّ عَشْرُ تُفَاحَاتٍ — فِي مِثْلِ حُجُومِ الْبِرَامِيلِ — فَكَادَتْ تَقْتُلْنِي قَتْلًا، وَلَكِنِّي تَجَلَّدْتُ أَمَامَهُ، وَعُدْتُ عَلَى نَفْسِي بِاللَّائِمَةِ، وَعَزَمْتُ عَلَى الْأَمَازِحِ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

وَتَسَاقَطَ الْبَرْدُ — ذَاتَ يَوْمٍ — وَأَنَا جَالِسٌ فِي الْحَدِيقَةِ، وَكَانَتْ الْحَاضِنَةُ تَحَادَثُ إِحْدَى رَفِيقَاتِهَا؛ فَهَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ وَأَنَا بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ. وَلَوْلَا أَنَّهُمْ أَسْرَعُوا بِنَقْلِي إِلَى الْفِرَاشِ لِأَصَبَحْتُ فِي عِدَادِ الْهَالِكِينَ، عَلَى أَنْنِي تَمَاتَلْتُ مِنَ الْمَرَضِ بَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ. وَقَدْ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ — كَمَا أَسْلَفْتُ — مَنَاسِبًا سَكَانَ هَذِهِ الْبِلَادِ، وَقَدْ وَرَنْتُ حَبَّةً وَاحِدَةً مِنْ حَبَّاتِ الْبَرْدِ الْمُتَسَاقِطَةِ، فَرَأَيْتُهَا أَكْبَرَ مِنْ حَبَّاتِ الْبَرْدِ الَّتِي نَرَاهَا عِنْدَنَا أَلْفًا وَثَمَانِينَ مَرَّةً.

(٣) في قَمِ كَلْبٍ

وما أنْسَ لا أنْسَ يومَ تَرَكْتَنِي الحَاضِنَةُ في الحَدِيقَةِ لِأَتَنْزِرَهُ وَحَدِي، وَأَحْلُوَ إِلَى نَفْسِي، وَكَانَتْ تَأْنَسُ مِنِّي — فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ — مَيْلًا إِلَى العُزْلَةِ وَالتَّفَكِيرِ.



وما تَرَكْتَنِي في الحَدِيقَةِ — بعدَ أَنْ وَثِقْتُ أَنَّهَا قد خَلَفْتَنِي في مَكَانِ أَمِينٍ — حَتَّى لَقِينِي كَلْبٌ صَغِيرٌ. وما شَمَّ رَائِحَتِي — من بَعِيدٍ — حَتَّى أُسْرِعَ إِلَيَّ، فَأَخَذَنِي فِي فَمِهِ، وَجَرَى مَسْرِعًا إِلَى صَاحِبِهِ البِستَانِيِّ، وَوَضَعَنِي أَمَامَهُ، وَوَقَفَ يُبْصِصُ (يُحَرِّكُ ذَنْبَهُ). وَكَانَ البِستَانِيُّ يَعرِفُنِي، فَأَسْرَعَ إِلَيَّ يُلَاطِفُنِي وَيُواسِينِي، وَيَسْأَلُنِي: كَيْفَ أَجَدُنِي؟ وَهَلْ أَصَابَنِي سَوْءٌ؟ وَلم يَكُنْ في قَدْرَتِي أَنْ أُجِيبَهُ — وَتَتَذَرُ — فَقَدَ أُعْمِيَ عَلَيَّ، وَلم أَفْقُ مِنْ غَشِيَّتِي إِلَّا بَعْدَ دَقَائِقَ، وَمَا أَطْمَأَنَّنَ عَلَيَّ سَلامَتِي حَتَّى حَمَلَنِي مَتَرَفِّقًا إِلَى حَيْثُ كُنْتُ، فَرَأَيْتُ الحَاضِنَةَ تَحَبُّثُ عَنِّي وَتُنَادِينِي، وَقَدْ اَمْتَلَأَتْ نَفْسُهَا حُزْنًا وَأَلَمًا حِينَ عَادَتْ إِلَى مَكَانِي فَلَمْ

تجدني فيه، فلما حدثها البُستاني بما جرى لي راحت تنهال عليه لومًا وتقريعًا لما سببه لي كلبه من الإزعاج والألم.  
وقد قبلت عذر البستاني — بعد حوارٍ طويلٍ — ووعده بأن تكتُم الحادث المشؤم عن الملكة، حتى لا تنزل به عقابها الصارم.

#### (٤) خَوَاطِرُ مَوْلَاةٍ

وقد آلت الحاضنة على نفسها ألا تفارقني لحظةً واحدةً حتى لا أتعرض لمكروهٍ بعد ذلك اليوم. ولقد طالما خشيت منها لهذا التضييق الشديد على حريتي، فكتمتها أكثر ما وقَع لي من الحوادث، ولست أنسى أن جعلًا (وهو صنفٌ من الخنافس) حاول أن يبتلعني، فلم يبقني منه إلا حضورٌ بيدهتي؛ إذ أسرعت إلى شجرةٍ مُتدلّيةٍ أغصانها على حائط الحديدية، فاحتमित بها، وأخرجت مُديتي لأدفع أذاه عن نفسي.

وما أنسى أنني هويتُ — ذات يومٍ — في جحرٍ جردٍ (وهو نوعٌ من الفأر)، فوسعني إلى عنقي، ولم أخرجُ منه إلا بعدَ عناءٍ شديدٍ.

وكنْتُ أفكرُ في وطني — ذات يومٍ — وإني لغارقٌ في ذكرياتي وخَوَاطِري، إذ اغترضتني في طريقي قشرةٌ شجرةٍ، فكادت تقضي عليّ.

وكانت الطيورُ تهزُّ بي — لضالتي وقماتي — ولا تخشاني، وقد بلغ من استخفافها بي أن عُصفورًا وقحًا خطفَ من يدي قطعةً من الحلوى كنت أكلها! وكنْتُ إذا حاولتُ أن أدنو من تلك الطيور لأقبض عليها التفتت إليّ، وحركت مناقيرها مُنذرةً متوعدةً إياي أن تفتك بي، ثم سارت في طريقها وادعةً تلتقط ما شاءت من الدود والحَبِّ.

#### (٥) بَعْدَ عَامَيْنِ

على أن الله — سبحانه — قد كتب لي الخلاص من هذه البلاد بسرعةٍ عجيبةٍ، ويسرت لي عنايته أن أعود إلى وطني بطريقةٍ لا تُخَطِرُ على بالٍ، كما سَري القارئُ فيما بعدُ.

لقد مضى عليّ عامان، وأنا في تلك البلاد. وفي مُستهلِّ العامِ الثالثِ خرجتُ مع الحاضنة والحاشية — في صحبة جلالتي الملك والمَلِكَة — إلى سياحةٍ في الحدودِ الجنوبيَّةِ للمملكة. وقد حملوني في العُلبَة التي كانوا يُعدونها لأسفاري، وهي حجرة

تلائمني كلَّ الملاءمة؛ عَرَضُهَا اثْنَا عَشْرَةَ قَدَمًا. وقد طلبتُ إليهم أن يَشُدُّونِي بأربعة حُيُوطٍ مِنَ الحَرِيرِ إِلَى أَرْكَانِ الحُجْرَةِ الأربعة؛ حتى لا أشعُرَ باهتزازٍ واضطرابٍ في أثناء سَيْرِ الجِوَادِ، الذي كان يَمْتَطِيهِ أَحَدُ الخُدَمِ وَيَضَعُ عُلبَتِي أَمَامَهُ مُحَافِظَةً عَلَيَّ. وقد طلبتُ إِلَى النَّجَّارِ أن يصنَعَ لي ثُقْبًا صَغِيرًا فِي سَطْحِ عُلبَتِي بِمِقْدَارِ قَدَمٍ مَرَبَّعَةٍ؛ لِيَنفِذَ إِلَيَّ الهِوَاءَ مِنْهُ، وَلِيَتَسَنَّى لِي أن أَفْتَحَهُ وَأُغْلِقَهُ بِعَصَايَ كُلَّمَا أَرَدْتُ.

## (٦) وَدَاعِ الحَاضِنَةِ

وما وَصَلْنَا إِلَى نِهَآيَةِ سِيَاحَتِنَا، حَتَّى رَأَى المَلِكُ أن يَقْضِيَ بضعَةَ أَيَامٍ مَتَنَزِّهًا فِي مَدِينَةٍ مِنْ مَدَنِ بِلَادِهِ، تَقَعُ عَلَى مَسَافَةِ ثَمَانِيَةِ عَشَرَ مِيَلًا مِنْ شَاطِئِ البَحْرِ. ولقد جَهَدْتَنِي هَذِهِ السِّيَاحَةَ، وَجَهَدْتُ مَعِيَ الحَاضِنَةَ. وقد أُصِبتُ بِزُكَامٍ خَفِيفٍ، كَمَا انْحَرَفَتْ صِحَّةُ الحَاضِنَةِ المُسْكِنَةِ؛ فَقد كَانَتْ مُضْطَرَّةً لِلبَقَاءِ إِلَى جَانِبِي، وَالسَّهْرَ عَلَى رَاحَتِي، وَالعِنَايَةَ بِأَمْرِي دَائِمًا.

وَاشْتَدَّ شَوْقِي إِلَى رُؤْيَةِ البَحْرِ؛ فَتَظَاهَرْتُ بِأن وَطْأَةَ المَرِضِ قَدِ اشْتَدَّتْ بِي، وَلَمْ أَقْصِدْ بِذَلِكَ إِلا أن يُؤَدِّنَ لِي بِاسْتِنشَاقِ هِوَاءِ البَحْرِ مَعَ خَادِمٍ كَانُوا يَعْهَدُونَ إِلَيْهِ بِأَمْرِي فِي بَعْضِ الأَحْيَافِ، وَكُنْتُ أَنْسُ إِلَيْهِ، وَأَرْتَاحُ إِلَى خُلُقِهِ. وَلَسْتُ أَنْسَى مَعَارِضَةَ الحَاضِنَةِ فِي ذَلِكَ، وَكَيْفَ تَأَلَّمْتُ لِإِفْرَاقِي أَشَدَّ الأَلَمِ، وَلَمْ تَرَضْ بِذَلِكَ إِلا بَعْدَ أن أَوْصَتِ الخَادِمَ بِي، وَأَلَحَّتْ عَلَيْهِ فِي العِنَايَةِ بِأَمْرِي. وَلَمَّا وَقَفْنَا لِلوَدَاعِ هَمَلَتِ الدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَيْهَا، وَكَأَنَّمَا أَحَسَّ قَلْبُهَا شَرًّا مُسْتَطِيرًا، أَوْ لَعَلَّهَا شَعَرَتْ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهَا أَنَّهُا لَنْ تَرَانِي بَعْدَ ذَلِكَ اليَوْمِ.

وَاللنَّفْسِ حَالَاتُ تُرِيهَا كَأَنَّهَا      نُشَاهِدُ فِيهَا كُلَّ عَيْبٍ سَتَشْهَدُ

## (٧) على شاطئ البحر

ثم حملني الخادِمُ في عُلبتي، وسار بي نحوَ نصفِ ميلٍ، بعيدًا عن القصرِ المُلكيِّ المُشيدِ في تلكِ المدينةِ، ومَضَى صَوْبَ الصُّخُورِ على شاطئِ البحرِ، فطلبتُ إليه أن يَضْعني على الأرضِ، ثم فَتَحْتُ إِحْدَى نَافذَتَيْ، وَأَخَذْتُ أُجِيلُ بَصْرِي في أَرْجاءِ البحرِ بَعَيْنِ مُغْرُورِقَةٍ بالدُّمُوعِ، ونَفْسِ كَثِيْبَةٍ مَحْزُونَةٍ. ثم رأيتُنِي في حَاجَةٍ إلى النُومِ؛ فَطَلَبْتُ إلى الخادِمِ أن يُغَلِّقَ النَافِذَةَ حتَّى لا أُصَابَ بِبَرْدٍ. وقد اسْتَسَلَمْتُ لِنُومٍ عميقٍ، ولستُ أدري ماذا صنع الخادِمُ بعد ذلك. ولعلَّه قَدِ اطْمَأَنَّ إلى أنني في مكانٍ أمينٍ، ووثقَ بأنني لن أُصَابَ بِسُوءٍ؛ فراح يَتَسَلَّقُ الصُّخُورَ بِأِحْتِئًا — في أوكارِ الطيورِ — عَن أَفْرَاحِهَا وَبَيِّضِهَا، وقد كنتُ رأيتُهُ مِنْ خِلَالِ نَافِذَتِي يَفْعَلُ ذلكَ قَبْلَ أن أَنَامَ.



## (٨) في أجواز الفضاء

ثم اسْتِيْقِظْتُ بَعْنَةً، وقد سَعَرْتُ أن عُلبتي تَهْتَزُّ اهْتِزَازًا عَنيفًا، وترتفعُ إلى عُلوِّ شاهِقٍ مُنْدَفِعَةٍ إلى الأمامِ بِسُرْعَةٍ لا مِثِيلَ لها. وشعرتُ أن الرَّجَّةَ الأولى كادت تقذفُ بي من العَلْبَةِ التي كنتُ فيها، ثم حَفَّتِ الحَرَكَةُ قَلِيلًا قَلِيلًا؛ فَصَرَخْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي، ولكنَّ صُرَاحِي نَهَبَ أَدْرَاجَ الرِّيَّاحِ. ونظرتُ من خِلَالِ نَافِذَتِي، فلم أَرِ غَيْرَ السُّحْبِ — السُّحْبِ وَحَدَهَا — وسمعتُ ضَجَّةً مُفْرِعَةً فَوْقَ رَأْسِي، تُمَاطِلُ حَفَقَ الأَجْنِحَةِ. وثُمَّ أدركتُ حَرَاجَ مَرَكْزِي، وعلمتُ مَدَى الخُطَرِ الذي أنا مُسْتَهْدِفٌ له. وألْقِي في روعي أن نَسْرًا كَبِيرًا — مِنْ نُسُورِ تلكِ البِلادِ — قَدِ حَمَلَ العَلْبَةَ بِمِنْقَارِهِ. وهو يوشِكُ أن يُلْقِي بِهَا من حَالِقِ إلى الصُّخُورِ

— كما تُلقي السُّحُفَاةُ قشرةً من فَمِهَا إلى الأَرْضِ — ثم يفتَرَسِنِي بعد ذلك، ولَقَدْ كُنْتُ  
أَعْرِفُ هذا الطائرَ، وما وهبه الله من حاسَّةِ الشَّمِّ القويَّةِ التي تَهْدِيهِ إلى فريستِهِ على  
مسافةٍ بعيدةٍ؛ فأدرَكْتُ أنه اهتدى إليَّ، مع أنني كُنْتُ مختفياً عن ناظِرِهِ تحت ألواحِ مَنْ  
الخشبِ، تَخَانَةٌ كُلُّ لَوْحٍ منها إصْبَعَانِ. وبعدَ وقتٍ قصيرٍ شعرتُ أن حَفَقَاتِ جَنَاحِيهِ  
بدأتُ تزدادُ وتشدُّ، ثم سمعتُ ضرباتٍ عنيفةً، ورَأَيْتُ عُلْبَتِي تَزْتَطِمُ — في عُنْفٍ وَشِدَّةٍ  
— فأدرَكْتُ أنني هَوَيْتُ — في أقلِّ من دقيقةٍ — بسرعةٍ لا تمرُّ بخاطرٍ.



وشعرتُ — في أثناء سُقُوطِي — بهزَّةٍ عنيفةٍ رَنَّ دَوِيُّهَا في أذُنِي؛ فَخِيلَ إِلَيَّ أَنَّنِي  
أَسْمَعُ دَوِيًّا أَشَدَّ مِنْ دَوِيِّ الشَّلَالِ، ثم أَصْبَحْتُ في ظِلَامٍ حَالِكٍ مُدَّةَ دقيقةٍ أُخْرَى. ثم  
ارْتَفَعَتْ عُلْبَتِي ثانيةً، فرَأَيْتُ ضوءَ النهارِ مِنْ أَعْلَى نَافَذَتِي؛ فأدرَكْتُ — حينئذٍ — أنني

قَدْ هَوَيْتُ إِلَى الْبَحْرِ، وَأَنَّ عُلْبَتِي سَابِحَةٌ تَتَقَاذَفُهَا الْأَمْوَاجُ الْمُصْطَخِبَةُ، كَأَنَّهَا رَيْشَةٌ مَعْلَقَةٌ فِي مَهَبِّ رِيحٍ عاصِفَةٍ هُوَجَاءَ.

وِدَارَ بِخُلْدِي أَنْ نَسْرَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةَ قَدِ تَعَقَّبَا — فِيمَا أَظُنُّ — النَّسْرَ الَّذِي كَانَ يَحْمِلُ عُلْبَتِي، فَعَلَبَاهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَسَعَلَاهُ بِالذَّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ، فَاضْطَرُّوا إِلَى تَرْكِي، وَلَعَلَّهُمَا كَانَا يُحَاوِلَانِ اخْتِطَافِي مِنْهُ، فَلَمَّا هَوَيْتُ إِلَى الْبَحْرِ كَادَتْ عُلْبَتِي تَتَفَكَّكُ، لَوْلَا الصَّفَائِحُ الْحَدِيدِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ لَهَا حَيْرٌ سِيَاجٍ، فَحَفِظْتُ تَوَازُنَهَا، وَحَالَتْ دُونَ تَكْسُرِهَا وَتَحَطُّمِهَا بَعْدَ سُقُوطِهَا مِنْ ذَلِكَ الْإِزْتِفَاعِ الشَّاهِقِ.

أَه! لَوَدِدْتُ — حِينِيذٍ — أَنْ عَزِيزَتِي الْحَاضِنَةُ الْمَخْلَصَةُ كَانَتْ إِلَى جَنْبِي لِتَسَاعِدَنِي عَلَى الْخَلَاصِ مِنْ هَذَا الْحَادِثِ الْمَفْاجِئِ. وَلَمْ يُنْسِنِي مَا أَنَا فِيهِ مِنْ شَقَاءٍ ذَكَرْتُهُ هَذِهِ الْفِتَاةِ الْمَخْلَصَةِ، وَأَسْفِي عَلَى فِرَاقِهَا، وَعَلَى مَا يَنْتَابُهَا مِنَ الْحُزَنِ الْعَمِيقِ حِينَ تَفْتَقِدُنِي فَلَا تَرَانِي أَمَامَهَا!

وَذَكَرْتُ حُزْنَ الْمَلِكَةِ عَلَى فِرَاقِي؛ فَتَأَثَّرْتُ لِذَلِكَ أَشَدَّ التَّأَثُّرِ، وَإِنِّي لَعَلِي يَقِينٌ مِنْ أَنْ قَلِيلِينَ جِدًّا مِنَ السَّائِحِينَ قَدْ وُجِدُوا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَازِقِ الْحَرَجِ الَّذِي وُجِدْتُ فِيهِ. وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ تَحْتَطِّمَ عُلْبَتِي بَيْنَ لِحْظَةٍ وَأُخْرَى، أَوْ تَنْقَلِبَ بِي — عَلَى الْأَقْلَلِ — إِذَا عَنُقْتُ بِهَا الرِّيحُ، أَوْ طَغَى عَلَيْهَا الْمَوْجُ.

## (٩) الْأَمَلُ بَعْدَ الْيَأْسِ

وَلَقَدْ كَسَرْتُ لَوْحًا زُجَاجِيًّا مِنْ أَلْوَاحِ النَّافِذَةِ — غَيْرِ عَامِدٍ — وَأَصْبَحْتُ نَهَبَ الْحَوَادِثِ، وَلَمْ يَبِيقْ لِي أَمَلٌ فِي النِّجَاةِ لَوْلَا تِلْكَ الْعُمْدُ الْحَدِيدِيَّةُ، الْمَثْبُتَةُ بِهَا النَّافِذَةُ مِنَ الْخَارِجِ، وَرَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْفُذُ إِلَى عُلْبَتِي مِنْ خِلَالِ بَعْضِ الشُّقُوقِ، فَبَدَلْتُ قِصَارَى جُهْدِي فِي سَدِّ كُلِّ نُغْرَةٍ وَجَدْتُهَا. وَلَسَدُّ مَا أَسْفُتُ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِي أَنْ أَرْفَعُ سَطْحَ عُلْبَتِي لِأَجْلَسَ فَوْقَهَا، بَدَلًا مِنْ بَقَائِي فِي دَاخِلِهَا كَأَنِّي مَحْبُوسٌ فِي قَاعِ سَفِينَةٍ.

وَإِنِّي لَعَارِقٌ فِي هَذِهِ التَّامَلَاتِ وَالْمَخَاوِفِ، إِذْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي أَسْمَعُ حَرَكَةً بِالْقُرْبِ مِنْ عُلْبَتِي، ثُمَّ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ الْعَلْبَةَ تَجَرُّ إِلَى نَاحِيَةٍ بَعَيْنِهَا، وَكُنْتُ — بَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ — أَشْعُرُ بِأَنَّ الْأَمْوَاجَ تَرْتَفِعُ أحيانًا إِلَى أَعْلَى نَافِذَتِي فَأُصِيبُ فِي ظِلَامِ حَالِكِ، فَفَرَّ فِي نَفْسِي أَنَّ أَنَا سَا

قريبين مني يحاولون إنقاذي مما أنا فيه؛ فوقفْتُ على كُرْسِيِّ فَوْقَ كُرْسِيِّ، ورفعتُ رأسي إلى ثُغْرَةِ صَغِيرَةٍ فِي سَطْحِ عُلْبَتِي، وصحْتُ طالبًا النَّجْدَةَ بکلِّ لُغَةٍ أُعْرِفُهَا.

## (١٠) سَاعَةُ الْخَلَاصِ

ثم شَدَدْتُ مِندِيلِي إِلَى عَصَايَ، وَأَخْرَجْتُهُ مِنَ الثُّغْرَةِ، وَحَرَكْتُهُ فِي الْهَوَاءِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ؛ لَعَلَّ السَّفِينَةَ — الَّتِي أَتَخَيَّلُهَا قَرِيبَةً مِنِّي — تَرَاهُ فَتَعْرِفُ أَنَّ فِي تِلْكَ الْعُلْبَةِ إِنْسَانًا تَعَسَا يَبْغِي الْغَوْثَ وَالنَّجَاةَ. وَكَدْتُ أَيَّاسُ مِنَ الْخَلَاصِ وَأَكُفُّ عَنِ النَّدَاءِ، وَلَكِنِّي أَحْسَسْتُ أَنَّ عُلْبَتِي تَتَقَدَّمُ إِلَى الْأَمَامِ؛ فَعَاوَدْتَنِي الْأَمَلُ. وَبَعْدَ سَاعَةٍ تَقْرِيبًا شَعَرْتُ أَنَّهَا قَدْ صَدِمَتْ بِشَيْءٍ صُلْبٍ، فَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ قَدْ صَدِمَتْ بِصَخْرَةٍ فِي طَرِيقِهَا؛ فَاسْتَوَلَى عَلَيَّ الرَّعْبُ وَالانزعاجُ. ثُمَّ سَمِعْتُ حَرَكَةً وَاضِحَةً — فَوْقَ سَطْحِ عُلْبَتِي — وَأَحْسَسْتُ أَنَّ حَبَلًا قَوِيًّا يَجْرُهَا، وَهِيَ تَرْتَفِعُ شَيْئًا فَشَيْئًا مِنْ مَكَانِهَا نَحْوَ ثَلَاثَةِ أَقْدَامٍ، فَارْفَعْتُ عَصَايَ وَمَنْدِيلِي مُلَوًّا بِهِمَا فِي الْفُضَاءِ، وَصَرَخْتُ — بِأَعْلَى صَوْتِي — طَالِبًا الْغَوْثَ وَالنَّجْدَةَ، حَتَّى بَحَّ صَوْتِي؛ فَسَمِعْتُ هُتَافًا يَتَرَدَّدُ، فَامْتَلَأَ قَلْبِي سُرُورًا لَيْسَ فِي قَدْرَتِي أَنْ أَصْفَهُ لِلقَارِيءِ؛ وَلَيْسَ فِي قَدْرَةِ إِنْسَانٍ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ هَذَا السُّرُورُ إِلَّا إِذَا تَخَيَّلَ نَفْسَهُ مَكَانِي.

وَقَدْ سَمِعْتُ — بَعْدَ ذَلِكَ — حَفَقَ أَقْدَامٍ عَلَى السَّطْحِ، وَطَرَقَ أذُنِي صَوْتُ رَجُلٍ يناديني بِلُغَتِي مِنَ الثُّغْرَةِ قَائِلًا: «هَلْ هُنَا أَحَدٌ؟»





فَأَجِبْتُهُ مِنْ فَوْرِي: «نعم — بكلِّ أَسْفٍ — يا سيِّدي، هنا إنسانٌ تَعَسَّ مِسْكِينٌ،  
أَسْلَمَهُ جَدُّهُ الْعَاثِرُ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ الْمَحْزَنَةِ، وَهُوَ يَضْرَعُ إِلَيْكَ أَنْ تُنْقِذَهُ مِنْ هَذَا السُّجْنِ!»  
فَأَجَابَنِي الصَّوْتُ: «لا عليك يا أخي، فاطمَئِنِّ، فَقَدْ شَدَدْنَا صُنْدُوقَكَ إِلَيْنَا، وَاسْتَدْعَيْنَا  
النَّجَارَ لِفَتْحِهِ، وَإِخْرَاجِكَ مِنْهُ.»

فَقُلْتُ، وَقَدْ نَسِيتُ أَنَّنِي لَسْتُ فِي بِلَادِ الْعَمَالِقَةِ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ هَذِهِ الْحِجْرَةَ بِإِصْبَعٍ  
وَإِحْدَةٍ: «لا حاجةَ إلى هذا العناءِ كلِّه؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَعْرِقُ وَقْتًا طَوِيلًا، فَلْيَتَقَدَّمْ أَحَدُكُمْ،  
وَلْيَضَعْ إِصْبَعَهُ فِي الْحَبْلِ؛ فَيَرْفَعِ الْعُلْبَةَ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى السَّفِينَةِ بِلا عَنَاءٍ.»  
وَمَا سَمِعُوا ذَلِكَ حَتَّى ضَجُّوا مِمَّا سَمِعُوا، وَقَدْ خَيَّلَ إِلَيْهِمْ أَنَّنِي مَعْتَوُهُ لَا أَفْقَهُ مَا  
أَقُولُ!

وما كنتُ أحسبُ — حينئذٍ — أني بين رجالٍ من أبناءِ جنسي في مثلِ ضالَّةِ جسْمي وقصرِ قامتي، ثم جاء النجَّارُ — بعدَ دقائقٍ قليلةٍ — ففتح ثُغرةً في أعلى العلبَةِ، عرضها ثلاثة أقدامٍ، وأدلى إليَّ بسُلْمٍ صَغيرٍ، فصعدتُ فيه. وما وصلتُ إلى السفينةِ حتى كان الضعفُ والإعياءُ قد بلغا بي كلَّ مبلغٍ. وقد دهشَ الملاحونَ جميعاً من رؤيتي، وسألوني عدةً أسئلةً؛ فلم أقو — لضعفي — على إجابتهم عن سؤالٍ واحدٍ.

### (١١) نومٌ مضطربٌ

ولسَدَّ ما أدهشني قصرُ قاماتهم، وكانت عيناى قد تعودتا رؤيةَ العمالقَةِ، وما يحيطُ بهم من الأشياءِ الضخمةِ العظيمةِ. وقد أدرك الرُّبانُ — بذكائه — ما أنا عليه من الضعفِ؛ فأدخلني حُجْرتهُ، وحملني إلى سريره لأستريحَ مما أنا فيه، فأخبرتهُ — قبلَ أنْ أُغمضَ عيني — أنْ في عُلبتي أثاثاً ثميناً وثياباً فاخرةً من الحريرِ والقطنِ، ورجوتُ منه أنْ يأمرَ أحدَ رجاله بنقلِ ما في عُلبتي من الأثاثِ، فعجبَ الرُّبانُ كيف أُسمي تلكَ الحُجرةَ الواسعةَ عُلبةً صغيرةً، وحسبني أهدي ولا أعي ما أقولُ.

على أنه جاراني في الكلام، ووعدني بتحقيقِ ما أردتُ، ليطمئنني ويُرْضيني، ثم أُرسلَ رجاله لإحضارِ العلبَةِ.

أما أنا فاستسلمتُ لنومٍ مضطربٍ بضعَ ساعاتٍ، وظللتُ أحلمُ ببلادِ العمالقَةِ التي تركتها، ويتمثلُ لي الخطرُ الذي كنتُ مُستهدفاً له، فلما أفقتُ من نومي وجدتني مستريحاً نشيطاً، وكانت الساعةُ الثامنةَ مساءً؛ فأعدتُ لي الرُّبانُ طعامَ العشاءِ بكرمٍ وسخاءٍ، ولكنه عجب حينَ رأى عيني زائغتين!

### (١٢) كيف اهتدوا إلى «جلفر»

ولمَّا خلا بي الرُّبانُ طلب إليَّ أنْ أقصَّ عليه قصَّتي، وكيف كنتُ في هذا المكانِ؟ ومن وضعني في الصندوقِ؟ وقد أخبرني أنه رآه من بعيدٍ في وقتِ الظهرِ — حينَ كان ينظرُ بمنظاره — فحسبه زورقاً صغيراً، فحوَّلَ سفينتهُ إليه حتى اقتربَ منه، وأرسلَ زورقاً ليتعرَّفَ حقيقتهُ، فعاد إليه رجاله مذعورين، وأخبروه أنهم رأوا بيننا عائماً؛ فضحك من

بَلَاهَتِهِمْ، وَاسْتَقَلَّ الزُّورِقَ بِنَفْسِهِ، وَدَارَ حَوْلَ الصُّنْدُوقِ عِدَّةَ مَرَاتٍ، فَرَأَى نَافِذَتَهُ، فَلَمْ يَسْعَهُ إِلَّا أَنْ يَأْمَرَ مَلَّاحِي سَفِينَتِهِ أَنْ يَجِدِفُوا حَتَّى اقْتَرَبُوا مِنْهُ، وَرَبَطَ حَبَلًا فِي أَحَدِ أَسْيَاحِ النَّافِذَةِ، وَلَفَّهُ حَوْلَ الْعُلْبَةِ وَقَدْ رَأَى عَصَايَ — وَفِي طَرَفِهَا الْمُنْدِيلُ — فَأَيَقَنَ أَنَّ أَحَدَ التُّعَسَاءِ الْمَسَاكِينِ قَدْ أَلْقَى فِي دَاخِلِ هَذَا الصُّنْدُوقِ سَجِينًا.

فَسَأَلْتُهُ: هَلْ رَأَى طَائِرًا كَبِيرًا فِي الْفَضَاءِ حِينَ رَأَيْتَنِي؟ فَقَالَ لِي مَتَعَجَّبًا: «لَقَدْ كُنْتُ أَتَحَدَّثُ إِلَى أَصْحَابِي فِي ذَلِكَ وَأَنْتَ نَائِمٌ؛ فَذَكَرَ لِي أَحَدُهُمْ أَنَّهُ رَأَى ثَلَاثَةَ نُسُورٍ تَطِيرُ فِي الْفَضَاءِ — صَوْبَ الشَّمَالِ — عَلَى ارْتِفَاعٍ عَظِيمٍ.»

وَلَمْ يَعْرِفِ الرَّبَّانُ مَاذَا عَنَيْتُ بِهِذَا السُّؤَالِ.

### (١٣) شُكُوكُ الرَّبَّانِ

ثُمَّ سَأَلْتُ الرَّبَّانَ: «كَمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْيَابِسَةِ؟»

فَقَالَ لِي: «إِنَّ الْمَسَافَةَ الَّتِي بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْأَرْضِ تَبْلُغُ نَحْوَ مِائَةِ مِيلٍ.»

فَقُلْتُ لَهُ: «لَا أَظُنُّ إِلَّا أَنْ الْمَسَافَةَ نِصْفُ ذَلِكَ الْقَدْرِ؛ فَكَيْفَ غَادَرْتُ الْبِلَادَ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا مِنْذُ سَاعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ أَهْوِيَ إِلَى الْبَحْرِ.»

فَحَسِبَ الرَّبَّانُ أَنَّي قَدْ جِنَنْتُ، وَظَنَّ أَنَّي أَهْذِي، وَأَنَّ رَأْسِي مُضْطَرِبٌ مِمَّا لَقِيْتَهُ مِنَ الْهَوْلِ، وَأَشَارَ عَلَيَّ أَنْ أَنَامَ فِي حُجْرَتِهِ، فَأَثْبَتُّ لَهُ أَنَّي فِي غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى النَّوْمِ، وَأَنَّي قَدْ اسْتَعَدْتُ قُورَايَ بَعْدَ أَنْ نِمْتُ وَأَكَلْتُ، وَأَنَّي وَاعٍ مُتَثَبِّتٌ مِمَّا أَقُولُ.

فَنَظَرَ إِلَيَّ مُعَبِّسًا، وَقَالَ لِي، فِي لَهْجَةِ الْحَازِمِ الْجَادِّ فِي قَوْلِهِ: «أَرْجُو أَنْ تُكَاشِفَنِي بِحَقِيقَةِ أَمْرِكَ، بِلَا مُوَارَبَةٍ، مَا دُمْتُ وَاعِيًا مُتَثَبِّتًا مِمَّا تَقُولُ. كَمَا أَرْجُو أَنْ تُفْضِيَ إِلَيَّ بِالْجَرِيمَةِ الَّتِي ارْتَكَبْتَهَا، فَاسْتَحَقَّقْتَ عَلَيْهَا الْعِقَابَ.»

وَلَعَلَّهُ ظَنَّ أَنَّ أَحَدَ الْمُلُوكِ قَدْ أَمَرَ بَوْضْعِي فِي هَذَا الصُّنْدُوقِ، وَالْقَائِي فِي الْبَحْرِ عِقَابًا لِي عَلَى جُرْمِ اقْتَرَفْتُهُ، كَمَا يُفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ، إِذْ يَتْرَكُونَ تَحْتَ رَحْمَةِ الْأَمْوَاجِ الْهَائِجَةِ فِي سَفِينَةٍ مِنْ غَيْرِ شِرَاحٍ وَلَا زَادٍ. وَأَظْهَرَ لِي أَلَمَهُ وَامْتِعَاضَهُ مِنْ أَنَّ يُؤْوِي فِي سَفِينَتِهِ أَحَدَ الْأَشْرَارِ، وَلَكِنَّهُ أَقْسَمَ لِي إِنَّهُ لَنْ يَمَسَّنِي بِسَوْءٍ إِذَا صَدَقْتُهُ حَقِيقَةَ أَمْرِي، وَإِنَّهُ سَيُنزِلُنِي سَالِمًا فِي أَوَّلِ بَلَدٍ يَمُرُّ بِهِ فِي طَرِيقِهِ.

وَحَتَمَ كَلَامَهُ بِقَوْلِهِ: «لَقَدْ حَامَتِ الشُّبُهَةُ حَوْلَكَ، وَزَادَهَا عِنْدِي مَا سَمِعْتُهُ مِنْكَ مِنْ  
الْهَدْيَانِ الْجَنُونِيِّ الَّذِي كُنْتَ تَتَخَبَّطُ فِيهِ، فَتُسَمَّى الْحَجْرَةَ الْكَبِيرَةَ غَلْبَةً صَغِيرَةً، وَقَدْ رَأَيْتُ  
عَيْنَيْكَ زَائِعَتَيْنِ لَا يَكَادُ يَقْرُ لِهَمَّا قَرَارًا، وَرَأَيْتُكَ تَنْظُرُ فِيمَا حَوْلَكَ نَظْرَةَ الْقَلِقِ الْحَائِرِ  
الْمُضْطَرِّبِ.»

#### (١٤) اِفْتِنَاعُ الرَّبَّانِ

فَرَجَوْتُ مِنْهُ أَنْ يَتَرَيَّتَ قَلِيلًا فِي حُكْمِهِ حَتَّى يَسْمَعَ قِصَّتِي كُلَّهَا. ثُمَّ رَوَيْتُ لَهُ — فِي أَمَانَةٍ  
وَدِقَّةٍ — كُلَّ مَا حَدَثَ لِي مِنْذَ تَرَكْتُ بِلَادِي فِي رِحْلَتِي الْأَخِيرَةِ، إِلَى أَنْ تَلَقَّيْنَا فِي تِلْكَ  
السَّفِينَةِ.

وَمَا كَانَتْ الْحَقِيقَةُ تَشُقُّ طَرِيقَهَا إِلَى الْعُقُولِ الْمُدْرِكَةِ الصَّحِيحَةِ ارْتِاحَ الرَّجُلِ الذَّكِيِّ  
الْكَيْسِ (الدَّقِيقِ الْإِحْسَاسِ) إِلَى سَلَامَةِ سَرِيرَتِي، وَصَفَاءِ نَفْسِي وَإِخْلَاصِي، وَزَادَهُ اقْتِنَاعًا  
— بِمَا قُلْتُ — مَا رَأَاهُ فِي صُنْدُوقِي مِنَ الطُّرْفِ وَالتُّحْفِ الَّتِي أُتَيْتُ بِهَا مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ.  
وَكَانَ بَيْنَ هَذِهِ التُّحْفِ الْمَشْطُ الَّذِي صَنَعْتُهُ مِنْ شَعْرَاتِ لِحْيَةِ الْمَلِكِ. وَقَدْ أَرَيْتُ  
الرَّبَّانَ مُشْطًا آخَرَ كُنْتُ قَدْ صَنَعْتُ مَقْبِضَهُ مِنْ ظُفْرِ إِبْهَامِ الْمَلِكِ، كَمَا أَرَيْتُهُ إِضْمَامَةً مِنَ  
الْإِبْرِ وَالذَّبَابِيسِ طَوَّلَ الْوَاحِدَةِ مِنْهَا قَدَمٌ وَنِصْفُ قَدَمٍ، وَخَاتَمًا مِنَ الذَّهَبِ أَهْدَتْهُ إِلَيَّ الْمَلِكَةُ  
ذَاتَ يَوْمٍ — بَعْدَ أَنْ نَزَعْتُهُ مِنْ بِنَصْرَهَا — وَوَضَعْتُهُ قِلَادَةً فِي عُنُقِي.



وَرَجَوْتُ مِنَ الرَّبَّانِ أَنْ يَتَقَبَلَ مِنِّي هَذَا الْخَاتَمَ هَدِيَّةً إِلَيْهِ، عَرَفَانًا بِمُرُوعَتِهِ وَتَفَضُّلِهِ عَلَيَّ، فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ عَلَيَّ صَنِيعِهِ أَجْرًا. ثُمَّ أَرَيْتُهُ السَّرْوَالَ الَّذِي أَلْبَسُهُ — وَهُوَ مَصْنُوعٌ مِنْ جِلْدِ فَأْرَةٍ — فَوَثَّقَ الرَّبَّانُ بِمَا قُلْتُ، وَارْتَحَّ لِسَمَاعِ قِصَّتِي، وَلَمْ يُنْكَرْ عَلَيَّ شَيْئًا مِمَّا ذَكَرْتَهُ لَهُ. وَقَدْ أَلَحَّ عَلَيَّ فِي الرَّجَاءِ أَنْ أُثَبِّتَ هَذِهِ الْوَقَائِعَ كُلَّهَا فِي كِتَابٍ وَأُذِيعَهُ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَقُلْتُ لَهُ: «إِنَّ الْخَزَائِنَ وَالْمَكْتَبَاتِ غَاصَّةً بِأَسْفَارِ السَّائِحِينَ وَرِحْلَاتِهِمْ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَرْتَابَ بَعْضُ النَّاسِ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَكْتَبُهُ، أَوْ يَحْسَبَهُ رِوَايَةً خِيَالِيَّةً أَوْ تَلْفِيقًا لَا حَقِيقَةَ لَهُ. عَلَى أَنِّي لَا أَرَى فِي هَذَا الْكِتَابِ — إِذَا أَدْعَتْهُ — إِلَّا وَصْفًا صَادِقًا لِمَا رَأَيْتُهُ مِنْ نَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ وَتَقَالِيدٍ وَأَخْلَاقٍ، وَمَا أَحْسَبُ أَنَّ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ يَسْتَحِقُّ عَنَاءَ كِتَابَتِهِ.»

ثُمَّ شَكَرْتُ لِلرَّبَّانِ حُسْنَ رَأْيِهِ فِيَّ.

## (١٥) ملاحظات الربان

وقد عَجِبَ الرَّبَّانُ أَشَدَّ العَجَبِ حينَ رَأَى لا أَتَكَلَّمُ مَعَهُ إِلا بِأَعْلَى صَوْتِي، وَسَأَلَنِي عَنِ السِّرِّ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ عَلَّمَهُ بِأَنَّ مَلِكَ العِمَالِقَةِ وَمَلِكَتَهُم أَصَمَّانِ، فَقُلْتُ لَهُ: «لَقَدْ أَلْفَتُ الكَلَامَ بِصَوْتٍ مَرْتَفِعٍ مِنْذُ عَامَيْنِ، وَقَدْ أَدَهَشَنِي مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَصَوَاتِكُمُ الخَافِتَةِ، بَعْدَ أَنْ أَلْفَتُ أَذْنَائِي أَنْ تَسْمَعَا أَصَوَاتًا مَرْتَفِعَةً كَالرَّعْدِ. وَكُنْتُ إِذَا تَكَلَّمْتُ فِي تِلْكَ البِلَادِ — مَعَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِهَا — خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي أَخاطِبُ رَجُلًا يُطَلُّ مِنْ فَوْقِ مِئْدَنَةٍ. وَكَثِيرًا مَا وَضَعُونِي فَوْقَ مَائِدَةٍ عَالِيَةٍ، أَوْ رَفَعُونِي بِأَيْدِيهِمْ؛ حَتَّى يَتَبَيَّنُوا مَا أَقُولُ. وَلَشَدَّ مَا عَجِبْتُ حينَ وَقَفْتُ بَيْنَكُمْ فَرَأَيْتُ أَمَامِي عِدَّةَ رِجَالٍ غَايَةً فِي الصَّغَرِ، بَعْدَ أَنْ تَعَوَّدْتُ عَيْنَايَ أَنْ تَرِيا ضِخَامَ الأَشْيَاءِ الَّتِي كَانَتْ تُشْعِرُنِي بِحَقَارَةِ نَفْسِي دَائِمًا.»

ولقد كاشفني الربان بأنه قد لاحظ — حين كنت أتعشى على المائدة — أنني كنت زائغ البصر، أنظر إلى كل شيء في دهشة وحيرة، وتلوح على أساري وجهي رغبة شديدة في الضحك، ولكنني كنت أحبس عواظي حبسا حتى لا أفهقه ضاحكا. وقد كاشفني الربان بأنه كان يعزو ذلك إلى اختلال في المخ.

فشرحت له عذري في ذلك، وكيف أدهشني ما رأيته من صغر المائدة، وضالة ما عليها من الصحاف التي لا يزيد حجمها على حجم قطعة نقد فضية من النقود التي كنت أراها في بلاد العمالقة! وقد كنت أرى الحروف كله لا يزيد على لقمة واحدة يزدردها واحد من أولئك العمالقة، وأرى القدح لا يزيد على قشرة جوز صغيرة، وظللت أصف له كل ما على المائدة، وأقيسه إلى أمثاله في تلك البلاد، ثم قلت له: «لقد كانت الملكة تأمر بإعطائي كل ما يناسب صغر قامتي وضالة جسمي، إلا أن أفكاري كانت كلها محصورة فيما كان يكتنفني من الضخامة. وكنت — وأنا على ظهر هذه السفينة — أنظر إلى ما حولي متعجبا من ضالته، غافلا عن أنكم في مثل حجمي!»

فضحك الربان، وذكّرني بالمثل القديم الذي يقول: «إن عيون بعض الناس أوسع من بطونهم.»

لأنه رأى أنني كنتُ — على ما أزعُمُه من صِغَرِ المائدة، وعلى جُوعِي الشَّدِيدِ — لا  
أتهافتُ على الطَّعامِ، ولا أكلُ منه إلاَّ قَدْرًا يَسِيرًا بعد أن صُمتُ يومًا كاملًا.  
ثم ختم دُعابته بقوله: «لقد كنتُ أتمنَّى أن أرى ذلك الصُّندوقَ الذي كنتُ في داخله  
وهو في منقارِ النَّسْرِ، ثم أراه وهو يَهْوِي — بعد ذلك — من ارتفاعِهِ الشَّاهِقِ إلى البحرِ.  
وإني لأدفعُ مائةَ جُنَيْهِ مَعْدُودَةً ثَمْنًا لِهَذَا الْمَنْظَرِ الرَّائِعِ الْمُدهِشِ، الذي يَجْدُرُ بِكَ أن  
تُسجِّله في كتابٍ، ليقرَّاهُ النَّاسُ في العُصورِ القادمةِ!»

## خاتمة الرحلة

### (١) العُودَةُ إلى الوَطَنِ

وكان من حُسْنِ حَظِّي أن ذلك الرُّبَّانَ عائِدًا إلى «إنجِلِترا» وهو قادمٌ من «تُنْكِين». وما وَصَلْنَا إلى الدرجةِ الأربَعِينَ من حُطوطِ الطُّولِ، حتى هَبَّتْ عَلَيْنَا رِيحٌ شديدةٌ، ولم يَكُنْ قد مرَّ على وُجودي في السفينةِ إلَّا يَوْمَانِ، فاندَفَعْنَا إلى الشَّمَالِ زَمَنًا طَوِيلًا، ثم حاذينا الشَّاطِئَ، حتى بلغْنَا رأسَ الرَّجاءِ الصَّالِحِ.

وكانتِ الرِّحْلَةُ سعيدَةً مُوفِّقَةً، رَغَمَ ما كابَدْنَا فيها من جَهْدٍ وَعَنَاءٍ في التغلُّبِ على العواصِفِ الهُوجِ. وقد مرَّ الرُّبَّانُ ببِلَدَيْنِ — في أثناءِ سفرِهِ — فتزوَّدَ مِنْهُمَا بما شاءَ من الطعامِ والماءِ، أما أنا فلم أَبْرَحِ السفينةَ حتَّى وصلتُ إلى وطني في اليومِ الثالثِ من شهرِ يُونِيَّةِ عامِ ١٧٠٦م، أي بعدَ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ تقريبًا من خِلاصي.

وما وصلتُ إلى المَرْفَأِ، حتَّى أَرَدْتُ أن أتركَ متاعِي عندَ الرُّبَّانِ ليكونَ رهينَةً لَدَيْهِ إلى أنْ أدْفَعَ له أَجرَ سفرِي، ولكنه أبى أن يأخذَ مِنِّي أيَّ أَجرٍ على ذلك، فودَّعْتُهُ، ودَعَوْتُهُ مُتَرَفِّقًا أنْ يَنْفَضَلَ بزيارتي في «رديف». واستأجرتُ جَوادًا وِدَلِيًّا بعدَ أن اقْتَرَضْتُ مِنَ الرُّبَّانِ قَلِيلًا مِنَ النُّقُودِ لأدْفَعُهَا أَجرًا للدَّلِيلِ.





وَكُنْتُ — فِي أَثْنَاءِ سَيْرِي — أَدَهَسُ لَصِغَرَ الْمَنَازِلِ، وَضَالَّةَ الْأَشْجَارِ، وَحَقَارَةَ الدَّوَابِّ،  
وَقَمَاءَةَ الرَّجَالِ؛ فِإِخَالْنِي سَائِرًا فِي «لِيلِيْبُوت» — بِلَادِ الْأَقْزَامِ — وَأَتَحَرَّجُ مِنْ أَنْ أَطَأَ  
بِقَدَمِي أَحَدًا مِنْهُمْ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ. وَكُنْتُ أَصِيحُ بِهِمْ أَنْ يَتَنَحَّوْا، وَكِدْتُ أَشْتَبِكُ فِي  
مَعْرَكَتَيْنِ — بِسَبَبِ حِمَاقَتِي — وَقَدْ عَرَّضْتُ نَفْسِي لِلْهَلَاكِ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا.

## (٢) فِي بَيْتِ «جَلْفَرِ»

وَمَا وَصَلْتُ إِلَى مَنزِلِي، وَقَرَعْتُ بَابَهُ، حَتَّى فَتَحَ لِي أَحَدُ الْخَدَمِ، فَانْحَنَيْتُ لِأَدْخُلَ — حَذَرًا  
مِنْ أَنْ يُصَدِّمَ رَأْسِي بِأَعْلَى الْبَابِ — وَقَدْ بَدَأَ لِي الْبَابُ صَغِيرًا كَأَنَّهُ نَافِذَةٌ صَغِيرَةٌ!



وما رأيتني زَوْجَتِي، حتى أَسْرَعْتُ إِلَيَّ لتعانقني وتقبّلني - وهي فرحانةٌ بعودتي سالمًا - فأنحنيْتُ انحناءً طويلاً أمامها، حتى أصبحتُ دُونَ رُكْبَتَيْهَا، وقد خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهَا - لِقَصْرِهَا - لن تصلَ إِلَيَّ إلا إذا انحنيْتُ أمامها إلى هذا الحدِّ. ثم أَسْرَعَ إِلَيَّ وَلَدَائِي، وركعَا على رُكْبَتَيْهِمَا حَمْدًا لله على سلامتي، فلم أَسْتَطِعْ أَنْ أَتَبَيَّنَهُمَا إلا بعد أن وقفا أمامي، لأنني كنت قد اعتدتُ - منذُ زمنٍ طويلٍ - أَنْ أَقْفَ مَرْفُوعِ الرَّأْسِ مَصُوبًا عَيْنِي إِلَى أَعْلَى. ثم نظرتُ إلى مَنْ وَفَدَ عَلَيَّ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ لِيُحْيِيَنِي؛ فرأيتُهُمْ جميعًا أَقْرَامًا ضئلاً، وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّني بينَهُمْ عِمْلَاقٌ عَظِيمٌ بَائِنُ الطَّوْلِ. ولقد طالما قلتُ لزوجتي: «إِنَّكَ غَايَةٌ فِي الضَّالَّةِ وَالنَّحَافَةِ.» لأنني رأيتها وابنيها أمامي كأنَّهُم حَشْرَاتٌ صَغِيرَةٌ!

وهكذا أصبحت غريبَ الأطوار؛ فارتأبوا في صحّة عقلي، وسلامة أعصابي، وحسبوني — كما حسبني الرُّبَّانُ من قَبْلُ حينَ رَأَيْتُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ — قد جُنِنْتُ بعدَ ما لَقَيْتُهُ مِنَ الأَهْوَالِ، ولم يَكُنْ لِدَلِكْ كُلِّهِ مِنْ سَبَبٍ إِلا أَنَّنِي قد تَعَوَّدْتُ رُؤْيَةَ الْعَمَالِقَةِ وما يَكْتَنِفُهُمْ مِنْ ضَخَامِ الأَشْيَاءِ؛ فَصَغُرَ فِي عَيْنِي كُلُّ ما رَأَيْتُهُ فِي بِلادِي، مِنْ إنْسَانٍ وَحَيوانٍ وَنَباتٍ. وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَيَّ ما تُحْدِثُهُ الْعَادَةُ مِنْ أَثَرٍ فِي نَفْسِ صَاحِبِهَا.

ولم يمض عليّ زمنٌ قليلٌ، حتّى اسْتَقَرَّتِ الأُمُورُ فِي نِصابِهَا؛ فَأَلْفَتُ أَنَّ أَرى الأَشْيَاءَ عَلَيَّ حَقِيقَتِهَا، وَأَقْبَلْتُ عَلَيَّ أَهْلِي وَأَصْدِقائِي؛ فَفَرِحُوا بِذَلِكَ أَشَدَّ الْفَرَحِ. وَرَأَتْ زَوْجِي أَنَّ تَكُونُ هَذِهِ خاتمةَ الرِّحَلاتِ؛ فَأَبْرَمَتْ أَمْرَها أَلَّا تَدْعَنِي أُعْرِضُ نَفْسِي — بَعْدَ ذَلِكَ اليَوْمِ — لِأَخْطارِ الأَسْفارِ، وَرُكُوبِ البِحارِ.